

الوحي وسؤال الحضارة

بين التقدم المادي وغاية الإنسان



الإهداء

إلى من يحمل همّ نهضة أمته، ويأبى أن يكون ثمنها اغترابه عن دينه.

إلى من يلتمس في الوحي هداية الطريق، ويأخذ بأسباب العلم والعمل؛ فيتعلم مما أحسنه الناس، ويحفظ استقلال نظره، ولا يجعل قوة الحضارة حجة على صحة كل ما تدعو إليه.

إلى الآباء والمعلمين الذين يرجون لجيلهم إيماناً يبصر به وجهته، وعلماً يحسن به عمله، وعزة تعينه على نفع الناس والعدل معهم. إليكم هذا الكتاب؛ رجاء أن يعين على فهم يصون الدين ويصلح الحياة. ونسأل قارئه دعوة صادقة لنا ولوالدينا ولكل من أعان على إعدادة.

هذا الكتاب وقفٌ لله تعالى

تأليف وتوزيع مدارج

المحتويات

٦	مقدمة
٩	١ - ما الذي نغنيه بالخطاب المدني
١٤	٢ - الإنسان الذي نخدمه
١٩	٣ - عمارة الأرض في مكانها الصحيح
٢٤	٤ - ما الذي تعلمنا إياه قصص النبوات
٢٩	٥ - كيف نتعلم من الغرب
٣٤	٦ - كيف نغير أفكار الإنسان
٣٩	٧ - العقل واليقين وأدب السؤال
٤٣	٨ - العلم وما نطلبه منه
٤٧	٩ - العلمانية وموضع الخلاف مع الإسلام

تابع المحتويات

- ٥٢ ١٠ - الحرية وكرامة الإنسان
- ٥٧ ١١ - المصلحة التي تحفظ الإنسان
- ٦٣ ١٢ - الدين والتاريخ ودوافع الإنسان
- ٦٨ ١٣ - كيف نفهم النص
- ٧٣ ١٤ - التراث والتجديد
- ٧٨ ١٥ - قراءات حديثة في الدين والتراث
- ٨٥ ١٦ - العلاقات مع المختلف
- ٨٩ ١٧ - الخلاف الديني وأحكام الناس
- ٩٤ ١٨ - السلم والقوة والوفاء
- ٩٩ ١٩ - العبادة وحياة القلب

تابع المحتويات

- ٢٠ - حقوق الله والعدل بين الناس ١٠٣
- ٢١ - الكلام الواضح والفكرة العميقة ١٠٧
- ٢٢ - هل أضعنا دينانا ١١١
- ٢٣ - الاستقامة والابتلاء وتأخر الثمرة ١١٥
- ٢٤ - الجمهور وأمانة الكلمة ١١٩
- ٢٥ - هوية نتعلم وتعمل ١٢٣
- ٢٦ - الوحي وسؤال الحضارة في حياتنا ١٢٨
- المراجع ١٣٤

مقدمة

قد يقرأ شاب عن جامعة أتقنت البحث، أو مدينة أحسنت خدمة سكانها، فيسأل: لماذا نجحوا فيما تعثرنا فيه؟ وهو سؤال يستحق جواباً صادقاً. لكن الحديث قد ينتقل سريعاً من جودة التعليم والإدارة إلى القول بأن التقدم يقتضي إبعاد الدين عن الحياة. هنا نحتاج إلى التوقف: ما الذي أثبتته النجاح فعلاً؟ وما الأفكار التي ألحقت به من غير دليل؟

هذا هو السؤال الذي ينطلق منه الكتاب. فالحضارة تمنح الإنسان قدرة على البناء والتنظيم وتحسين معيشته، ويبقى السؤال عن الغاية التي تستحق هذه القدرة، وعن الحقوق التي لا يجوز أن يضيعها في سبيلها. قد نعرف كيف نزيد الإنتاج، ثم نختلف في عدالة توزيعه. وقد نتقن التأثير في الناس، ثم نحتاج إلى ما يلزمنا بالصدق معهم. ينطلق الكتاب من أن الوحي هداية للإنسان في معرفته بربه، وغاية وجوده، وصلته بالناس. ومن هذه المرجعية ينظر في العلم والعمل والحرية والمصلحة والعمران. فالإيمان يحمل المسلم على التعلم والإتقان وأداء الحقوق، ويمنحه معياراً يحاسب به نفسه وما يراه حوله من أفكار وتجارب.

وسنستعمل تعبير «الخطاب المدني» لمعنى محدد: الاتجاه الذي يجعل التقدم المادي أو رغبة الإنسان المعاصر معياراً أعلى يعاد على أساسه تفسير الدين وقبول أحكامه أو ردها. أما حسن الإدارة، وتطوير التعليم، وخدمة المجتمع، فلكل منها بحثه ودليله وحكمه. ووضح هذا الفرق يعيننا على أن نناقش الفكرة المقصودة، وأن ننصف ما لدى الناس من خبرة وفضل.

تبدأ الفصول بمنزلة الإنسان وغاية الحياة ومكان عمارة الأرض، ثم تنتقل إلى التعلم من التجارب الأخرى، والعقل والعلم ومصادر المعرفة. وبعد ذلك تبحث موضع الخلاف مع العلمانية، ومعاني الحرية والمصلحة، وقراءة النصوص والتراث، والعلاقة بالمختلف. وتصل هذه الأسئلة بحياة المسلم في عبادته، وعمله، وتربيته، وخطابه للناس.

ولا تستقيم هذه المناقشة إذا جعلنا التقصير القائم فضيلة، أو حملنا الدين أخطاء من ينتسبون إليه. كما لا تستقيم إذا جعلنا التفوق في مجال شهادة بصحة كل اعتقاد يحمله المتفوق. المطلوب أن نعرف سبب النجاح فنتعلمه، وأن نعرف موضع الخطأ فنصلحه، وأن نفحص كل دعوى بما يناسبها من دليل.

وفي نقد الاتجاهات سنعتني بما تقوله الفكرة وما يترتب عليها، مع التفريق بين نقدها والحكم على أصحابها. وقد يصيب مخالف في

وصف مشكلة ويخطئ في تفسيرها، وقد يدافع موافق عن معنى صحيح بحجة ضعيفة. والإنصاف يقتضي أن نرى هذا التفصيل، وأن تبقى قوة الدليل مقدمة على شهرة الاسم وحماسة الجمهور. كُتب هذا الكتاب للقارئ الذي يريد فهم هذه المسائل دون أن تكون له دراسة متخصصة فيها. ولهذا تشرح المصطلحات في سياقها، وتقرب المعاني بأمثلة من الحياة، وتذكر المصادر لمن أراد التوسع. ويمكن قراءة الفصول متتابعة لبناء الصورة، ثم العودة إلى الفصل الذي يتصل بسؤال يعرض في الدراسة أو العمل أو النقاش.

نرجو أن يخرج القارئ بقدرة أوضح على التمييز بين الخبرة التي يتعلمها، والدعوى التي يفحصها، والأصل الذي يحفظه؛ وأن يظهر أثر هذا الفهم في علم نافع، وعبادة واعية، وعدل مع الناس، وعمل متقن. فثمرة النظر أن تعيننا المعرفة على حسن الاختيار وأداء ما علينا.

١ - ما الذي نعنيه بالخطاب المدني

كلمة واحدة وأسئلة مختلفة

حين يقول شخص إن المدينة تحتاج إلى إدارة مدنية، فقد يقصد إدارة تخدم السكان وتحاسب المسؤولين. وحين يتحدث آخر عن المجتمع المدني، فقد يقصد الجمعيات والمؤسسات التي يعمل فيها الناس خارج أجهزة الدولة. وقد يستعمل ثالث كلمة المدنية ليعني أن مرجعية التشريع ينبغي أن تفصل عن الدين. لا يستطيع القارئ معرفة المراد من الكلمة وحدها؛ عليه أن ينظر إلى الجملة التي وردت فيها والعمل الذي تدعو إليه.

نستعمل في هذا الكتاب تعبير «الخطاب المدني» عند مناقشة طريقة مخصوصة في التفكير: أن يصبح النجاح المادي أو رضا الإنسان المعاصر المرجع الأعلى الذي يعاد فهم الدين على أساسه. فإذا دل الوحي على معنى لا يوافق ذلك المرجع، عد المعنى مشكلة ينبغي التخلص منها. والفارق الحاسم هنا هو انتقال المنجز من مجال الانتفاع به إلى سلطة تحكم على معنى الدين. أما تحسين الإدارة ومقاومة الفساد وإتقان الصناعة فطالب نفحصها بأدلتها، ويحث الإسلام على ما فيها من العدل والإحسان.

يتضح الفرق في مثال بسيط. إذا اقترحت مدرسة الاستفادة من نظام أجنبي لتسجيل حضور الطلاب، فالسؤال عن دقته وكلفته وحفظه للخصوصية. وإذا أضيف أن النجاح التعليمي يتطلب إبعاد الدين عن تصور الطالب للحياة، فقد دخلت دعوى أخرى تحتاج إلى دليل آخر. جودة النظام الإداري لا تثبت صحة الفكرة المصاحبة له.

وقد يكون الجمع بينهما في مشروع واحد سبباً في أن ينتقل قبول الأول إلى الثاني دون انتباه.

من يحدد معنى النجاح

نعرف بعض صور النجاح بالقياس المباشر: انخفاض وقت انتظار المريض، وتحسنت سلامة البناء، ووصل الماء إلى بيت محروم. هذه نتائج نافعة. لكن وصف حياة كاملة بالنجاح يحتاج إلى معرفة ما يستحق أن يعيش الإنسان من أجله. فالمال الذي يحفظ أسرة يختلف في قيمته عن المال الذي يحصل عليه صاحبه باستغلال حاجتها، وإن تساوى الرقمان في الحساب.

لهذا نسأل عن الغاية وعن الوسيلة معاً. تعيننا الخبرة على معرفة ما ينجح وكيف ينجح، ويبين الوحي ما يجوز أن نطلبه وما يجوز أن نفعله في سبيله. وقد يأمرنا بالعمل النافع، أو يمنع طريقاً ظالماً إليه،

ويترك لنا مساحة واسعة لاختيار الوسيلة المباحة الأنسب. نحتاج في قرار واحد إلى معرفة دقيقة بضرر منتج، وإلى حكم يحفظ حق من يستعمله.

الحكم على المعنى

يمكن أن تحمل دعوة إلى الإصلاح أفكاراً صحيحة وأخرى تحتاج إلى تصحيح. والقارئ المتأني يفصل بينها. يسأل صاحبها عما يقصده بالحرية أو التقدم، ثم ينظر في الدليل والنتيجة. وقد ناقش محمد عابد الجابري في مقال عن المجتمع المدني تضيق بعض المتكلمين للمفهوم وإخراج جمعيات إسلامية مستقلة منه. وتفيد هذه الملاحظة في الانتباه إلى أن الأسماء قد تخدم التنافس بين الجماعات بدل أن تصف الواقع بدقة.

والقاعدة نفسها تشمل الأسماء الدينية. فقد يسمى إجراء ما «شرعياً» ثم يكون فيه ظلم أو خطأ في فهم الحكم. الاعتبار بما يثبت من المعنى والعمل. بهذا يستطيع المسلم أن يؤيد مطلباً اجتماعياً صحيحاً، وأن يناقش تصوراً مخالفاً للوحي، دون أن يحمل أحد الحكمين على الآخر.

أين يقع التحول المعياري

لا تكمن المشكلة في تحسين شروط الحياة، بل في المعيار الذي يحكم هذا التحسين. يمكن ترتيب العلاقة في أربع درجات: إنجاز مادي نتعلم طريقته، وقيمة إنسانية مشتركة نفحص معناها، وفلسفة تفسر الإنسان والعالم، ثم مرجعية تحكم على الوحي. الخلط بين الدرجات يجعل نجاح الدرجة الأولى برهاناً على صحة الدرجة الرابعة، مع أن تصنيع دواء ناجح لا يثبت رأياً في غاية الوجود أو مصدر الحلال والحرام.

هذا هو التحول المعياري: يبدأ المنجز شاهداً على كفاءة محددة، ثم يصير أصحابه نموذجاً كاملاً، ثم تصبح اختياراتهم ميزاناً، ثم يطلب من الدين أن يعيد تعريف نفسه ليلأتم الميزان الجديد. لا يقع هذا المسار دائماً، ولا يلزم أن يقصده كل من أعجب بإنجاز؛ لكنه احتمال يستحق الانتباه حين تكرر طريقة الاستدلال نفسها.

ولكي لا يصبح النقد تعميماً مقابل تعميم، نختبر كل دعوى بثلاثة أسئلة: ما المعنى المحدد الذي تقررهِ؟ ما الدليل الذي يثبته؟ وما النتيجة التي تلزم منه فعلاً؟ بهذه الأسئلة نقبل الإدارة الحسنة لأنها حسنة، ونرفض الظلم لأنه ظلم، ونناقش الفلسفة في موضعها. ولا نحتاج إلى تحويل كلمة «مدني» إلى تهمة ولا إلى شهادة براءة.

مصادر الفصل [د]: «قسمات الانقلاب المعياري» و«إشكالية التعميم»؛ درء تعارض العقل والنقل، ج، ١ ص ٧٩-٧٥؛ الجابري «مسألة مفهوم المجتمع المدني».

٢ - الإنسان الذي نخدمه

حياة أوسع من الاستهلاك

يحتاج الإنسان إلى الطعام والأمان والصحة، ويحتاج أيضاً إلى معنى يوجه حياته. يستطيع أن يحقق رغبات كثيرة ثم يسأل عن جدواها، وقد يتحمل مشقة كبيرة من أجل حق يؤمن به. يلفتنا ذلك إلى أن وصفه بأنه كائن يبحث عن المنفعة لا يفسر وحده جميع ما يختاره وما يندم عليه.

يقرر القرآن غاية خلق الجن والإنس: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» [الذاريات. ٥٦]: والعبادة تتسع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة؛ فتشمل الصلاة والصدق والرحمة وأداء الأمانة، كما تشمل محبته وخشيته والرجاء فيه. وأصلها أن نعبد وحده، فنعرف لمن نتوجه وبماذا نلتزم عندما تختلف رغباتنا وتزاحم مصالحنا] ١.

وتقوم هذه العلاقة على معرفة بالله ومحبه وتعظيمه. فالإنسان في التصور الإسلامي مخلوق له رب، وله قدرة يختار بها، وسوف يسأل عن عمله. وتكليفه لا يحوله إلى مصدر مستقل للحلال والحرام، كما أن تكليفه لا يسلبه حقه في الحياة الكريمة. يحمل الكرامة والمسؤولية معاً.

كيف يدخل العمل اليومي في العبادة

قد يعمل اثنان العمل نفسه، ويختلف أثره في قلبيهما وحياتيهما. أحدهما يؤديه بأمانة ويريد به الكسب الطيب وخدمة الناس، والآخر يتخذ ما يعرفه باباً للغش. صورة المهنة لا تكفي لوصف قيمتها. تنضم إليها النية والطريقة والحقوق التي تتعلق بها. واتساع العبادة يعطي العمل النافع معنى، مع بقاء الفرائض المخصصة في مكانها. بناء مستشفى عمل عظيم، والصلاة واجب له وقته وصفته. وقد يتعين على طبيب إنقاذ مريض فيقدم حقه العاجل على نافلة يستطيع فعلها لاحقاً. والعمل الأفضل في الموقف هو ما يحقق رضا الله ويؤدي الحق الذي يتعين فيه [٢]. فحسن التدين يحتاج إلى معرفة ما يطلبه الموقف، وإلى ترتيب الحقوق عند تراجحها. ومن هنا نفهم لماذا لا يصلح أن يحتمي الموظف بكثرة عبادته من نقد تقصيره، أو أن يحتج المحسن إلى الناس بإحسانه على إسقاط حق الله عليه. لكل عمل مكانه، ويكل صدق العبادة حسن الأداء.

العقل والفطرة والحاجة إلى الوحي

يعرف الإنسان بعقله أموراً كثيرة، ويميز بفطرته وجوهاً من العدل والقبح. لكنه يختلف مع غيره، وقد تخدعه مصلحته، ويجهل ما

وراء الحياة وما يستحقه خالقه من العبادة. يخاطب الوحي عقله، ويبين له ما لا يستقل بمعرفته، ويصحح ما يطرأ على نظره. الإيمان بالوحي يقوم على ثبوت صدق الرسول وصحة ما نقل عنه، فلا يكفي أن ينسب إنسان كلاً ما إلى الله ليصبح حجة. فإذا ثبت صدق الرسول، كان خبره حقاً فيما بلغه عن ربه. وقد يبقى لنا بحث آخر: هل فهمنا النص على وجهه؟ وهل نزلناه على الواقعة المناسبة؟ الشك في أصل الرسالة يدرس بأدلة النبوة، والاشتباه في معنى نص يدرس باللغة وجمع الأدلة. معرفة موضع السؤال تعين على اختيار الجواب الذي يعالجه [٣].

ما الذي نريده من التقدم

إذا خدم التقدم إنساناً بهذه الصفات، اتسعت أهدافه. نعالج المرض لأن حياة المريض ذات حرمة، ونعلم الطفل ليعرف ويعمل ويحسن الاختيار، وننظم السوق ليكسب الناس دون ظلم. ونحسب للمستقبل والآخرة حسابهما عندما تغرينا نتيجة قريبة. ويظل ألم الناس أمراً عاجلاً يستحق العمل. الإيمان بالآخرة يزيد مسؤولية القادر عن الجائع والمظلوم. فالحديث عن الغاية الكبرى ينبغي أن يعين على أداء الحق الصغير الذي بين أيدينا: دين نرده، ووقت نحترمه، وضعيف نسمع شكواه. هناك تبدأ الصلة بين التصور الإسلامي للإنسان ونفع المجتمع.

لماذا تسبق صورة الإنسان خطة الإصلاح

كل مشروع حضاري يحمل تصوُّراً للإنسان، ولو لم يكتبه في مقدمته. فالمدرسة التي ترى الطالب قوة عمل مستقبلية ستقيس نجاحه بما ينتجه. والمنصة التي تراه مستهلكاً ستصمم انتباهه ليبقى أطول وقت ممكن. والدولة التي تراه رقماً قابلاً للإدارة قد تنجح في ترتيب حاجاته وتفشل في صيانة حريته وضميره.

أما الإنسان في ميزان الوحي فليس روحاً بلا جسد، ولا جسداً بلا غاية. هو عبد لله، ومكرم، ومستخلف في حدود ما كلف به، ومسؤول عن القدرة التي أوتيها. لذلك لا يكفي أن نسأل: كم ازداد دخله؟ بل نسأل أيضاً: من أي طريق؟ وماذا صنع به؟ وهل صار أقدر على العدل والعبادة والعطاء؟ ولا يكفي أن نحفظ حياته البيولوجية إذا كنا ندمر قلبه أو نسلبه حق الاختيار المسؤول.

ومن هنا ننتغير لغة الإصلاح. لا نعد الفقير مادة لمشروعنا، ولا المريض رقماً في تقرير، ولا الطفل وعاءاً لمهارات السوق. لكل واحد حرمة وغاية وحق. وتصبح المؤسسة الناجحة هي التي تجمع النفع القابل للقياس مع الأمانة التي قد لا تظهر في المؤشرات سريعاً.

مصادر الفصل [١]: العبودية، ص ٤٤ وص [٢]. ٤٩-٤٨ مدارج السالكين، ج، ١ ص [٣]. ١١١-١٠٩ درء تعارض العقل والنقل، ج، ١ ص. ١٧٨-١٧٧ وانظر القرآن، الذاريات، ٥٦ والإسراء، ٧٠ والمملك ٢؛ و[د]»، وظيفة الإنسان» و«غائية الحضارة في سلم الوحي».

٣ - عمارة الأرض في مكانها الصحيح

لماذا تهمننا الوسائل

كلمة «وسيلة» قد توحى بشيء قليل الشأن، مع أن بعض الوسائل نتوقف عليها حياة الناس. الماء النظيف وسيلة، والدواء وسيلة، والقضاء المنصف وسيلة لحفظ الحقوق. حاجتنا إليها تجعل تعلمها وتوفيرها عملاً جليلاً، وقد يصير واجباً بحسب القدرة والحاجة. معنى كونها وسائل أن قيمتها تتصل بما تخدمه، وأن طريقة الحصول عليها تخضع للعدل.

إذا أرادت بلدة إنشاء مستشفى، احتاجت إلى طب وهندسة وإدارة وتمويل. وإهمال أحد هذه الجوانب بحجة حسن النية يضر بالناس. وفي الوقت نفسه تحتاج إلى اختيار عادل لموقعه، وإلى حماية المرضى من الاستغلال. النجاح هنا يجمع الكفاءة والأمانة. وكل منهما يكشف نوعاً من التقصير لا يعالجه الآخر وحده.

العمارة والاستخلاف

ورد في دعوة صالح لقومه: «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» [هود. ٦١]. يذكر المفسرون في «استعمركم» معاني تتصل بإسكان الناس الأرض وتمكينهم من عمارتها، ويذكر القرطبي أيضاً

القول بطلب العمارة. وقبل ذلك في الآية الأمر بعبادة الله وحده، وبعده الدعوة إلى الاستغفار والتوبة. يجمع السياق بين نعمة الوجود والقدرة وحق المنعم على عباده.

نستفيد من الآية قيمة العمران والانتفاع بالأرض، مع حفظ سياقها الديني. وسواء أبرز التفسير معنى التمكين أو معنى الطلب، فإن جعل العمارة غاية تستقل عن عبادة الله يتجاوز ما تقوله الآية. البناء النافع داخل المسؤولية التي دل عليها الوحي. وكذلك قوله تعالى: «إني جاعل في الأرض خليفة» [البقرة. ٣٠: ذكر ابن كثير في تفسيرها تعاقب البشر بعضهم بعد بعض، وما يتصل بإقامة الحكم والعدل. وتدل نصوص الوحي الأخرى على أن الإنسان مكلف ومسؤول؛ فلا تمنحه قدرته في الأرض حق إعادة تعريف الخير والشر بلا مرجع. ومن تولى أمانة سئل عن أدائها، ولم يصر بتوليها مالكا لكل حق يتعلق بها.

الخبرة والحكم

معرفة مقدار الحديد الذي يحتاجه جسر مسألة هندسية. أما تعمد إخفاء عيب يهدد مستخدميه فمسألة أخلاقية وشرعية أيضاً. وقد يجتمع في المشروع سبب فني للنتيجة وحكم شرعي على الفعل.

والتمييز بينهما يمنع خطأين: انتظار جواب في مفصل من نص لم ينزل لبيانه، وفصل النشاط الفني عن المسؤولية عن آثاره.

ويستعمل الفقهاء تعبير «الحكم الوضعي» في معان محددة، منها السبب والشرط والمانع المرتبط بالحكم الشرعي. أما السبب التجريبي الذي يدرسه المهندس فليس بمجرد ذلك حكماً وضعياً بهذا الاصطلاح. لا يحتاج القارئ إلى إتقان مصطلحات الأصول كي يفهم الفكرة: لكل سؤال أداة مناسبة، ثم تلتقي الإجابات عند اتخاذ القرار.

رفاه مشروع ومسؤولية باقية

يجوز أن يحب الإنسان مسك أن حسناً وطعاماً طيباً وأداة تسهل عمله. تحذر الشريعة من الإسراف والظلم والتعلق الذي يجعل المال حاكماً على الواجب. والقرآن يجمع في خطاب قارون بين طلب الآخرة والإحسان وعدم نسيان النصيب من الدنيا [القصص. ٧٧]: يصير المال بذلك مجالاً للاختيار المسؤول.

حين نحفظ للعمارة مكانها، نستطيع أن نطالب بالمشروعات الجيدة ونراجع نتائجها، وأن نسأل كذلك عمن انتفع ومن تحمل الضرر. قد يكون بناء مصنع ناجحاً في حساب الإنتاج، ويحتاج إلى إصلاح

في أجور العاملين أو سلامة الجوار. المعيار الواسع يساعدنا على تحسين النجاح نفسه بدل الاكتفاء بالإعجاب به.

حين تنفصل الوسيلة عن الغاية

قد تنجح أداة في أداء وظيفتها وتفسد المجال الذي تعمل فيه. منصة سريعة قد تنشر الكذب بكفاءة، ومصنع ضخم قد يضعف الإنتاج ويستهلك صحة العاملين، ونظام دقيق قد يحرم الضعيف حق الاعتراض. لذلك لا يساوي الإتقان التقني الصلاح الأخلاقي، مع أن المجتمع لا يستغني عن الإتقان.

والفصل بين الغاية والوسيلة لا يعني أن الوسائل محايدة دائماً. بعض الوسائل يعيد تشكيل العادات والعلاقات؛ فالمدينة المبنية للسيارة وحدها تصنع حياة تختلف عن مدينة يستطيع أهلها المشي واللقاء، والتطبيق الذي يكافئ الإثارة يغير لغة الناس ولو أعلن أنه مجرد ناقل. نحتاج إذن إلى فحص الوسيلة في ذاتها وفي آثارها المتوقعة.

المعادلة الجامعة بسيطة في لفظها وشاقة في عملها: نعلم الأرض
لأننا مسؤولون فيها، ونستعمل العلم لأنه يكشف لنا السنن، ونضع
القدرة تحت العدل لأنها ليست مالكة للغاية. فإذا تعارض طريق
سريع مع حق ثابت، أصلحنا الطريق. وإذا قصّرنا في حرفة نافعة،
تعلّمناها. لا يحمي الدين الكسل، ولا تبيح الحاجة أن يصبح
الإنسان وقوداً للمنجز.

مصادر الفصل: القرآن، هود، ٦١ والبقرة، ٣٠ والقصص ٧٧؛ الطبري والقرطبي،
تفسير هود ٦١؛ ابن كثير، تفسير البقرة ٣٠؛ [د]، «التعلق بآيتي العمارة
والاستخلاف» و«إشكالية إلغاء المدنية».

٤ - ما الذي تعلمنا إياه قصص النبوات

القوة لا تجيب عن كل سؤال

قد يكون المتحدث ضعيف المكانة، وتكون حجته صحيحة. وقد يكون صاحب سلطان واسع، ويخطئ فيما يدعو إليه. يصعب أحياناً إبقاء هذا الفرق حاضراً عندما تحيط القوة بصاحبها؛ فينتقل الاحترام لقدراته إلى التسليم بأقواله. يعرض القرآن صوراً لهذه المشكلة. تفاخر قوم عاد بقوتهم [فصلت: ١٥] واحتج فرعون بملكه وما تحته من الأنهار حين انتقص موسى [الزخرف: ٥٢-٥١]. وفي قصة نوح اعترض المملأ بمنزلة الذين اتبعوه في أعينهم [هود: ٢٧]: تختلف الوقائع، ويجمعها استعمال المكانة بدل فحص الرسالة.

ويسهل رؤية نظير هذا الانتقال في الحياة اليومية. إذا أحسن خبير صنع جهاز، استحق أن نثق بخبرته في نطاقها. أما اختياره في معنى الحياة أو مصدر الأخلاق فيحتاج إلى حجة تخصه. معرفة حدود الاختصاص تحمي قيمة الخبرة نفسها من تحميلها ما لا تثبته.

حين اجتمع الإيمان والقدرة

تقدم النبوات أيضًا صورًا لاجتماع الهداية والقدرة. يذكر القرآن تعليم داود صناعة اللبوس [الأنبياء، ٨٠]: ويعرض حفظ يوسف وعلمه حين طلب تولي خزان الأرض [يوسف، ٥٥]: ويحكي تسخير الريح لسليمان [سبأ، ١٢]: وفي خبر ذي القرنين نرى تمكينًا استعمل في إعانة قوم على دفع فساد، مع رد الفضل إلى رحمة الله [الكهف: ٠] ٩٨-٨٣ وذكر ذي القرنين هنا متعلق بفعله كما حكاه القرآن، دون بناء المجمة على الجزم بنبوته.

تساعد هذه الشواهد على تصحيح تصور أن الإيمان يقتضي ضعف القدرة أو الانسحاب من تدبير المعاش. الهداية توجه القدرة، وتحمّل صاحبها مسؤولية استعمالها. ويحتاج المؤمن إلى الشكر حين يقدر، وإلى الصبر والعمل حين يعجز. وفي المقابل، قد يمتلك غير المؤمن مهارة أو ملكًا. فلا يكفي حجم ما يملكه للحكم على قربته من الله. كما لا يدل خضوع أحد لسلطان نبي على معرفة اعتقاد قلبه في كل حالة. لكل خبر دلالة، ويستقيم الفهم عندما نقف عندها.

المال في عين صاحبه وعين الجمهور

في قصة قارون يظهر صاحب المال معجبًا بما عنده، ويظهر من يمتنون مثل حظه، ثم يتغير نظرهم بعد ما شاهدوا [القصص -

٧٦:٨٢] تفيدنا القصة في فهم أثر المشهد الباهر في الحكم. فالذي نراه من الخارج هو الملك الظاهر، أما حساب الكسب والحقوق والعاقبة فأوسع من الصورة.

هذه فائدة تربوية ومعرفية. يستطيع الإنسان أن يتعلم من نجاح مشروع دون أن يتمنى كل حياة صاحبه أو يبرر جميع اختياراته. ويستطيع أن ينتفع بمهارة شخص يخالفه في الدين، مع إبقاء الحكم على الاعتقاد في موضعه.

الدرس الذي نحمله إلى حاضرنا

لا تحول هذه القصص الفقر إلى فضيلة مطلقة، ولا تجعل التأخر علامة صلاح. ولا تدل واقعة بعينها على أن الإيمان والتقدم يتعاكسان في كل زمن ومجتمع. الذي نحتاج إلى حفظه هو استقلال سؤال الحق عن مقدار القوة، مع وجوب السعي في أسباب النفع. وحاجة الناس إلى النبوة باقية مع تقدم صناعاتهم؛ لأن الصناعة لا تجيب وحدها عن العبادة والمصير والعدل الذي يلزم القادر حين لا يخاف عقوبة بشرية. وفي حديث عياض بن حمار وصف لحاجة البشر إلى الهداية قبل بعثة النبي ﷺ. يجتمع هذا المعنى مع خبر تأبير النخل، الذي يبين موضع الخبرة العملية.

نطلب من كل باب ما جاء لبيانه، فتنكامل المعرفة ويستقيم العمل.

نماذج القوة الصالحة

لا تعرض قصص الأنبياء القوة في صورة واحدة. علم الله داود صنعة تحمي الناس، ومكن يوسف من إدارة خزائن الأرض في زمن أزمة، وسخر لسليمان من أسباب الملك ما لم يكن لغيره، وبني ذو القرنين ردًا ما يحمي قومًا مستضعفين. القدرة هنا علم وتنظيم وصناعة وولاية، لكنها بقيت مرتبطة بالشكر والعدل والمسؤولية.

وفي الجهة الأخرى يظهر قارون بماله، وفرعون بملكه، وعاد بقوتها. انخطأ لم يكن في وجود المال أو العمران، بل في النتيجة التي استخرجت منهما: أنا أحق، وأنا أعلى، ونحن أشد قوة. عندما تتحول القدرة من نعمة تستوجب الشكر إلى حجة على الحق، يبدأ الانقلاب. تمنحنا هذه المقارنة ميزاناً لا عقدة نقص فيه ولا عبادة للقوة. نفرح بالجامعة المتقدمة ونبني مثلها، لكننا لا نسأل الجامعة عن معنى العبادة. نتعلم من الاقتصاد المنظم، ولا نجعل نموه مسوغاً للربا أو الاستغلال. القوة الصالحة تخدم الحق؛ والحق لا يصير حقاً لأن القوي تبناه.

مصادر الفصل: القرآن، هود، ٢٧ وفصلت، ١٥ والزخرف، ٥٢-٥١ والأنبياء، ٨٠ ويوسف، ٥٥ وسبأ، ١٢ والكهف، ٩٨-٨٣ والقصص ٨٢-٧٦؛ صحيح مسلم، ٢٨٦٥ و ٢٣٦١ و ٢٣٦٣؛ [د]، مباحث النبوات والقوة المادية والخيرية.

٥ - كيف نتعلم من الغرب

ابدأ بما تريد أن تتعلمه

عبارة «التجربة الغربية» واسعة، تضم دولاً ومؤسسات ومذاهب وتواريخ مختلفة، وقد يختلف أهل البلد الواحد في الدين والسياسة والتعليم. لذلك تكون الاستفادة أدق حين نحدد موضوعها: نظام لتدريب المعلمين، أو طريقة لمراجعة سلامة دواء، أو إجراء يحد من تضارب المصالح. نستطيع عندئذ أن نسأل عن الدليل والكلفة والملاءمة.

تعظيم الكلفة كلها يجعل الاختيار صعباً، وكذلك رفضها كلها. أما دراسة الجزء المحدد فتعطينا فرصة للتعلم. قد نأخذ إجراءً نافعاً، ونعدله لظروفنا، ونترك تصوراً فلسفياً صاحب نشأته. لا تحتاج طريقة تنظيم المواعيد إلى أن نستورد معها جميع معتقدات المجتمع الذي أحسنها. وتشمل الأمانة في التعلم الاعتراف بما أحسنه الناس. إذا وفي شخص بعقده، فهذا فعل يستحق التقدير. لا نملك الجزم بأنه فعله طلباً للربح وحده، كما لا نملك الاطلاع على مجموع معتقده من موقف واحد.

يمكن دراسة أثر القانون والرقابة والتربية والمصلحة في السلوك، مع ترك سريرة المعين لما لا نعلمه.

بين الاستفادة والتقليد

التقليد الأعمى يبدأ حين يغيب السؤال عن سبب صلاحية الشيء. قد تنقل مدرسة نظاماً باهظاً لأن جامعة مشهورة تستخدمه، ثم تكتشف أنه يحتاج إلى مهارات وبنية لا تملكهما. كان الخطأ هنا في طريقة التعلم نفسها. وفي المجال الفكري قد ننقل موقفاً من الدين نشأ في نزاع تاريخي مخصوص، ثم نفترض أنه الجواب الضروري لتاريخنا المختلف.

يساعدنا في الحالتين تفكيك ما ننقله: ما المشكلة التي حلها؟ وما شروط نجاحه؟ وأي جزء منه خبرة قابلة للاختبار؟ وأي جزء اختيار في القيم؟ ثم نسأل عن أثره في الناس الذين سيطبق عليهم. بهذا يصير الاقتباس عملاً واعياً يحتاج إلى كفاءة. وقد يحمل تقليد المظهر معنى يتجاوز شكله. فالمشاركة في رمز ديني قد تنشئ ارتباطاً بما يمثله، بينما لا تحمل أداة عمل مشتركة هذا المعنى بالضرورة. لذلك نميز الشعائر والخصائص الدينية من الخبرات والأدوات المتاحة للناس. وينظر في صورة التقليد إلى حقيقتها وقصدها واستعمالها؛ فلا نحكم على جهاز نافع بحكم شعيرة، ولا نتعامل مع الشعيرة كما نتعامل مع جهاز.

نقد من الداخل أيضاً

في الفكر الغربي نفسه نقد للاستغلال والاستهلاك وإخضاع الإنسان للسوق، وفيه خلاف على حدود الحرية ومعنى المنفعة ومكانة الدين. معرفة هذا التنوع تمنع الاعتقاد أن موقفاً واحداً يمثل نتيجة العلم أو عقل الحضارة كلها. وسنناقش نماذج محددة في الفصول التالية بما تدعيه وبما يمكن الاعتراض به عليها.

ليس المقصود البحث عن غربي يوافقنا كي تصبح حجتنا صحيحة. المقصود أن نرى الواقع كما هو، ثم نزن الأقوال. وقد يصيب الكاتب في تشخيص ظلم ويخطئ في أصل يفسر به الدين. تتجزأ المعرفة، ويستطيع القارئ الاستفادة من الإصاغة مع فهم موضع الخلاف.

ماذا يتغير في عملنا

لنفترض أن مؤسسة تريد تقليل الفساد. يمكنها أن تتعلم من إجراءات الإفصاح والمراجعة وفصل الصلاحيات. وتضيف إليها تربية على الأمانة ومحاسبة عادلة. حسن الاعتقاد يعين على الاستقامة، والإجراء الجيد يساعد على كشف الخلل ومنع استمراره. حاجة المؤسسة إلى الأمرين تجعل التدين باعثاً على إتيان النظام.

وحين نتعلم بهذه الروح، يصبح الانتماء إلى الإسلام مصدر مسؤولية. نريد أن نحسن كما أحسن غيرنا، وأن نضيف ما نستطيع، وأن يبقى حق الله وحق الناس حاضرًا في النجاح. هذه عزة تحتمل التعلم والاعتراف بالتقصير.

الغرب عوالم لا عالم واحد

ليس الغرب عقيدة واحدة ولا تجربة متجانسة. فيه متدين وملحد، ومحافظ وليبرالي واشتراكي، وفي تاريخه استعمار ومقاومة للاستعمار، واستغلال للعامل ونقابات دافعت عنه، ونظريات متعارضة في الحرية والأسرة والدولة. من يقول «الغرب يرى» يحتاج غالبًا إلى تحديد بلد وزمن ومؤسسة واتجاه. هذا التعدد يحررنا من تقليد الصورة المتخيلة. نتعلم من مستشفى طريقة منع العدوى، ومن جامعة نظام مراجعة البحث، ومن مدينة إدارة النقل، من غير أن نستورد معها كل تصور للأسرة أو الدين. وقد نجد نقدًا للعلمانية أو الاستهلاك أو احتكار السوق داخل الفكر الغربي نفسه. المعرفة لا تعرف حدودًا قومية، لكن الحكم على المعرفة يحتاج إلى معيار.

ثلاثة اختبارات قبل الاقتباس

قبل نقل تجربة نسأل: هل هي أداة أم قيمة أم شعيرة؟ هل نجحت بسبب العنصر الذي نريد نقله أم بسبب شروط أخرى؟ وما الذي ستغيره في بيئتنا غير النتيجة المقصودة؟ بهذه الأسئلة نخرج من انبهار النسخ ومن خوف المنع. التقليد الأعمى يعطل العقل مرتين: مرة حين يرفض كل ما عند الآخر، ومرة حين يقبل كل ما عنده.

مصادر الفصل [د:] «الإسلاميون ضد الحضارة» و«غربة الغرب»؛ اقتضاء الصراط المستقيم، ج، ١ ص ٢٧١-٢٧٠ وج، ١ ص ٥٤٩-٥٤٨؛ مجموع الفتاوى، ج، ٤ ص ١٥٥-١٥٤

٦ - كيف تتغير أفكار الإنسان

قصة التحول أوسع من شعار

قد يتغير رأي شاب بعد قراءة كتاب، أو خبرة ظلم، أو صحبة جديدة. وقد يكون تغيره تصحيحاً لخطأ سابق، وقد يجمع حقاً وباطلاً. فهم التحول يبدأ بسماع الحجّة التي يعرضها، ثم النظر في الأدلة والسياق، مع تجنب اختزال مسيرته في وصف واحد. عندما يتغير رأي شخص، نسأل عما تغير في حجته. قد يعرض برهاناً يظنه عقلياً، وقد يميل إلى موقف لأن مجتمعا متقدماً أخذ به. في الحالة الثانية انتقل من الإعجاب بنجاح إلى قبول فكرة، من غير بيان كاف للصلة بينهما. وقد يجتمع الأمران. ولهذا لا يكفي وصف إنسان بأنه معجب بحضارة للحكم على جميع أقواله؛ نفحص حجته، ونبحث عن القرائن قبل تفسير تحوله.

وقد تشبه فكرة حديثة رأياً لفرقة قديمة من بعض الوجوه. يفيد التشابه في المقارنة، أما إثبات أن الرأي الحديث نشأ من تلك الفرقة فيحتاج إلى مسار معلوم للنقل والتأثر. الاسم التاريخي قد يختصر الحديث، لكنه لا يقوم مقام دراسة الفكرة الجديدة.

ما الذي نستطيع معرفته عن الدوافع

للبيئة أثر في الاختيارات. قد يشجع جمهور رأياً، وقد يغري موقع اجتماعي صاحبه بتجنب قول لا يحبه الناس، وقد تدفع تجربة قاسية إلى حكم متسرع. هذه احتمالات معقولة، وتصير تفسيراً لحالة معينة بقدر ما يقوم عليها من دليل. إذا أردنا دراسة أثر حدث سياسي في تحول فكري، نحتاج إلى معرفة ما كان يقوله الكاتب قبله وبعده، وما قرأه وما صرح به، وإلى مقارنة تفسيرات بديلة. مجرد اجتماع الحدث والتحول في زمن واحد لا يحسم السببية. وكذلك طلب الشهرة: قد يظهر في سلوك ثابت، لكنه لا يستنتج من كل رأي خاطئ أو مخالف لنا.

والقاعدة تشمل الموافقين. فحب القبول قد يدفع متحدثاً إلى التشدد كما قد يدفع آخر إلى التساهل. تصحيح هذا الخلل يحتاج إلى بيئة تكافئ الصدق والرجوع عن الخطأ، وتسمح بالسؤال دون إذلال. حين يصبح الاعتراف بالاشتباه ممكناً، تقل الحاجة إلى الدفاع عن رأي لمجرد حفظ المكانة.

الفكرة ولوازمها وصاحبها

إذا قال شخص إن كل حكم ديني يخالف رغبة المجتمع ينبغي تغييره، فإن قاعدته تمنح المجتمع سلطة واسعة على الأحكام. يصح

أن نشرح له هذه النتيجة ونسأله هل يقبلها. وقد يراجع القاعدة عندما يتبين له لازمها، أو يضع لها قيداً لم يذكره، أو يصر عليها. لذلك نفرق بين ما يترتب على الفكرة وبين ما يعتقده قائلها بالفعل. قد لا يكون قد رأى النتيجة، وقد يرفضها حين تبين له ويصحح قوله. نناقشه في الصلة بين المقدمة والنتيجة، ثم ننسب إليه ما ثبت أنه يقوله. أما التنبؤ بأن كل من بدأ بسؤال معين سينتهي حتماً إلى نهاية بعينها، فيضيف دعوى عن نفس الإنسان ومستقبله تحتاج إلى دليل آخر.

تستطيع الأفكار أن تدرج وتؤثر بعضها في بعض، كما يستطيع الإنسان أن يتوقف ويصحح ويعود. معرفة المسار المحتمل تفيد في الوقاية، دون أن تتحول إلى حكم مسبق يغلق باب الحوار.

كيف نحفظ استقلال النظر

تبدأ الوقاية من معرفة الأصول وفهم الحجج، ومن صحة نتيج التعلم. والقارئ يحتاج إلى أن يسأل نفسه: ما الذي أقعني؟ هل تغير الدليل أم تغير من يصفق لي؟ هل فهمت الرأي قبل أن أحبه أو أكرهه؟ وفي مناقشة شاب متردد يكون الإصغاء إلى سؤاله أنفع من إخباره منذ البداية بما سيؤول إليه. نعين موضع الاشتباه، ونقرأ معه ما يحتمل الفحص، ونحفظ حقه في الكرامة. بذلك

يلتقي نقد الفكرة مع الرحمة بصاحبها، ويصبح الرجوع إلى الحق أيسر.

خريطة التحول لا محاكمة السرائر

تغيير الأفكار لأسباب متداخلة: حجة جديدة، وتجربة مؤلمة، ورغبة في القبول، ونفور من نموذج سيئ، ومصلحة، وسؤال ظل بلا جواب. لا يستطيع الباحث أن يختار سبباً واحداً من بعيد ثم يقدمه كأنه اعتراف من صاحبه. ما يملكه هو النصوص المعلنة، وتسلسلها، والقرائن التي يمكن فحصها.

ومع ذلك يفيد تتبع المسار الفكري. قد تبدأ الخطوة بقبول استثناء ضيق، ثم تصاغ له قاعدة عامة، ثم تستعمل القاعدة في باب آخر. نختبر كل انتقال: هل النتيجة لازمة؟ وهل صرح بها صاحب القول؟ وهل توجد موانع أو تراجمات؟ بهذه الطريقة تتحول فكرة «المتوالية» من نبوءة حتمية إلى أداة إنذار ومراجعة.

والأهم أن نطبقها على أنفسنا. قد يبدأ المدافع عن الدين بنقد صحيح، ثم يتوسع حتى يظلم كل مخالف، ثم يجعل القسوة علامة ثبات. وقد يبدأ المصلح بإعجاب صحيح بإنجاز، ثم يجعل أصحابه مرجعاً في كل شيء. الخطأ لا يحتكره اتجاه. وكلما راقب الإنسان المقدمات الصغيرة، كان أقدر على تصحيح الطريق قبل أن تصير العودة أصعب.

مصادر الفصل [د]: «النماذج التفسيرية» و«ينابيع الغلو المدني» و«قانون المتوالية الفكرية»؛ مجموع الفتاوى، ج، ٣٥ ص ٢٨٨؛ الفوائد، ص ٥٨-٥٦

٧ - العقل واليقين وأدب السؤال

كيف نعرف أن الحجّة صحيحة

تتكون الحجّة من مقدمات ونتيجة. فإذا قيل إن بلدًا متقدمًا يقل فيه التدين، ثم استنتج أن قلة التدين سبب تقدمه، بقيت أسئلة لم تُجب: كيف قيس الأمران؟ وهل توجد أسباب أخرى؟ وهل تظهر العلاقة نفسها في حالات مختلفة؟ هذه الأسئلة جزء من احترام العقل؛ لأنها تمنع تحميل الملاحظة أكثر مما تحتمل.

والدليل الشرعي يحتاج أيضًا إلى فحص. نتثبت من صحة النص، ونفهم معناه، ثم ننظر في انطباقه على الواقعة. قد يكون الحديث صحيحًا ويكون استعماله في مسألة معينة غير صحيح، كما قد تكون الفكرة نافعة ويكون الخبر المسوق لتأييدها ضعيفًا. الحق الثابت لا يناقض الحق الثابت. فإذا بدا تعارض بين نقل واستدلال عقلي، فموضع البحث هو ثبوت كل منهما ودلالته. وليس الدليل قطعيًا لمجرد ثقتنا به؛ فقد تكون مقدماته غير ثابتة، أو لا تؤدي إلى النتيجة التي حملناها إياها. وقد يكون النص صحيحًا وتفسيرنا له محتملًا. فلا نقدم رأيًا لمجرد تسميته عقليًا، ولا نجعل فهمًا بشريًا معصومًا لمجرد استناده إلى نص [١].

الثقة بالدليل وقبول التصحيح

يسمي بعض الناس الجزم الديني «دوغمائية». فإن أرادوا التعصب الذي يرفض سماع الدليل، فهذا عيب يمكن أن يصيب المتدين وغيره. وإن أرادوا أن كل يقين عيب، فقد جمعوا بين الثقة التي تستند إلى حجة والثقة التي تهرب منها. معرفة الفرق تحفظ قيمة اليقين وقيمة المراجعة معاً.

يمكن للمسلم أن يوقن بصدق الوحي، ثم يخطئ في فهم نص أو ترجيح مسألة. الاعتراف بهذا الخطأ يزيد أمانته مع الأصل الذي يؤمن به. وقد يكون العلماء متفقين على مصدر الحكم، ويختلفون في صحة خبر أو دلالة أو وجه الجمع بين الأدلة. يحتاج القارئ إلى معرفة درجة المسألة قبل أن يصف المختلفين فيها.

وإذا قيل إن كل معرفة نسبية بحيث يستحيل إثبات شيء، شمل هذا الحكم نفسه. أما الإقرار بأن معرفتنا ناقصة وأن بعضها أقوى من بعض، فيعين على التعلم. نتق بما ثبت، وتتوقف فيما لم يتبين، ونفرق بين الاستحالة وعدم معرفتنا بالطريق بعد.

السؤال الذي يبني

قد يسأل الإنسان طلباً للفهم، وقد يكرر سؤالاً بعد جوابه لأنه لم يفهمه، وقد يستعمله للمجادلة. لا نعرف حاله بمجرد صيغة السؤال.

والأصل في التعليم أن نبث عما يحتاج إليه، ثم نقدم جواباً يناسبه. الغيرة على الحق تحسن حين يصحبها علم ورحمة. ويمكن للقارئ أن يختبر فهمه بأن يعرض حجة مخالفه عرضاً يوافق صاحبه على دقته. بعد ذلك يحدد موضع الخلاف: هل هو في المقدمة، أم في طريقة الاستنتاج، أم في التطبيق؟ عندئذ تكون المناقشة أقرب إلى تصحيح معرفة مشتركة، ويقل الانشغال بالانتصار الشخصي.

من العلم إلى الصدق

قد يعرف المرء ما ينبغي قوله، ثم يحجبه لمصلحة. وقد ينتصر في المناظرة ولا يتحسن عمله. لذلك يحتاج الإنسان إلى إصلاح ما يعرفه وما يريدُه معاً. المعرفة تكشف له الطريق، والصدق والإخلاص يعينانه على سلوكه حين يخالف هواه أو يحرمه ثناء الناس. في البيت والعمل تظهر ثمرة هذا الجمع. من الإنصاف أن نعترف بصواب اقتراح لم يصدر عنا، وأن نصح معلومة نشرناها، وأن نميز بين كرامتنا وبين بقاء رأينا. هذه أعمال صغيرة، لكنها تجعل احترام الدليل عادة اجتماعية.

اعتراضات لا يخشاها اليقين

يقال أحياناً: إذا بدأ المؤمن من الوحي فقد أغلق باب التفكير. والجواب أن الإيمان نفسه دعوى لها أدلتها، وأن ثبوت صدق

الرسول يغير موقع خبره في المعرفة. لا يعيد المسلم بحث النبوة من الصفر في كل حكم، لكنه يميز بين أصل الرسالة وبين فهمه الجزئي للنص. يستطيع أن يوقن بالأصل ويخطئ في الفرع.

ويقال: اختلاف المفسرين دليل على أن النص لا يهديننا إلى معنى. لكن الاختلاف لا يساوي انعدام المعنى؛ فالناس يختلفون في القانون والطب والتاريخ، ثم يصححون أقوالهم بالأدلة. السؤال المفيد ليس: هل وقع خلاف؟ بل: هل توجد لغة وسياق وقرائن ترجح فهماً على آخر؟ ويقال: اليقين يولد التعصب. الذي يولد التعصب هو رفض الدليل وظلم المخالف، وقد يجتمعان مع الشك كما يجتمعان مع اليقين. اليقين المنضبط يجعل صاحبه قادراً على قول: هذا أصل ثابت، وهذا اجتهاد راجح، وهذا أمر لا أعلمه. ليست الشجاعة أن نجزم في كل شيء، ولا أن نتردد في كل شيء؛ بل أن نعطي كل دعوى قدرها.

مصادر الفصل [١]: درء تعارض العقل والنقل، ج، ١، ص ٨٠-٧٩ وفي العلم والعمل: الصفدية، ج، ٢، ص ٢٣٥-٢٣٤؛ مفتاح دار السعادة، ج، ١، ص ٨٢-٨١ وفي أسباب الخلاف: رفع الملام، ص ٩-٨؛ و[د] «شبهة الدوغمائية» و«تعظيم الذهنيات».

٨ - العلم وما نطلبه منه

ما الذي يعرفه المختبر

يساعدنا العلم التجريبي على وصف ظواهر العالم وفحص العلاقات بينها. يستطيع باحث أن يختبر أثر مادة في جسم، وأن يقارن نتائج وفق شروط معلومة. وقد نغير النتيجة عندما تتحسن الأداة أو نتسع العينة أو يظهر تفسير أدق. هذا التصحيح من أسباب قوة البحث. وتبقى أسئلة أخرى ذات صلة بالعمل العلمي: هل يجوز إجراء التجربة على شخص دون رضاه؟ ومن يتحمل خطرهما؟ ولماذا ينبغي إعلان نتيجة لا ترضي الممول؟ هذه أسئلة أخلاقية تستفيد من معرفة النتائج، وتحتاج إلى أصول في الحقوق والواجبات. يستطيع القياس أن يصف ما حدث، أما استحقاق الإنسان للحماية فيحتاج إلى بيان أوسع.

يطلق أحياناً اسم «العلمية» على الاعتقاد أن العلم التجريبي هو الطريق الوحيد إلى كل معرفة معتبرة. هذا موقف فلسفي يزيد على نجاح التجربة في مجالها. فالحكم بأن كل حقيقة يجب أن تدخل المختبر لا يثبت نفسه بتجربة مخبرية، فضلاً عن أن البحث يستعمل مبادئ عقلية ولغوية قبل إجراء تجاربه.

المعرفة بالله ومهارات المعاش

في التصور الإسلامي للعلم مراتب من جهات مختلفة. فالعلم بالله وحقوقه ومصير الإنسان يتصل بأصل الغاية، والعلوم التي تحفظ الأبدان والأموال والعمران تتصل بحاجات عظيمة. وقد نتعين معرفة معينة على صاحب وظيفة في وقتها. لا يفيد ترتيب الغايات أن يترك الطبيب تعلم ما يحتاج إليه مريضه.

والعلم النافع يثر عملاً. فالذي يعرف قوانين البناء ثم يغش فيه قد يملك معلومات واسعة ويستعملها استعمالاً فاسداً. والذي يريد النخيل للمرضى دون علم بالعلاج يحتاج إلى التعلم قبل الممارسة. تظهر هنا حاجة القصد والمعرفة كل منهما إلى الآخر. وفي خبر تأبير النخل فرق بين رأي في شأن زراعي وبين التبليغ الديني. يفيد الخبر في احترام خبرة الناس بما يحسنونه. ولا يستفاد منه أن جميع ما يسمى شأنًا دنيوياً خرج من أحكام الصدق والعدل والحلال والحرام. التجارة معرفة عملية، ولها أيضاً حقوق وحدود شرعية.

كيف نقرأ خبراً علمياً

إذا قيل إن دراسة أثبتت أن التدين يسبب سلوكاً معيناً، فنسأل عما قيس من التدين والسلوك، وعن المجتمع المدروس، وعن الفرق بين التلازم والسببية. وقد يكون المقصود تديناً ظاهرياً أو

مشاركة اجتماعية أو تصوُّراً مخصوصاً. دقة الوصف تحمينا من نتائج أوسع من البحث. وكذلك إذا وافقت النتيجة ما نحب. لا يصير الخبر أقوى لأننا ارتحنا إليه، ولا يلزمنا أن نلصق كل اكتشاف بآية لإظهار صدق القرآن.

قد يحمل اللفظ معنى واضحاً في لغته وسياقه، ثم يتكلف قارئ ربطه بنظرية متغيرة. الاستئناس بما يثير التفكير أوسع من الجزم بأن النص قصد التفصيل العلمي بعينه.

التواضع الذي ينتج عملاً

الموقف النافع من العلم يجمع احترامه وفهم حدوده. نسأل الخبير في اختصاصه، ونطالبه ببيان درجة الثقة وما بقي مجهولاً، ونستعين بمعرفته عند اتخاذ القرار. ونجعل حفظ الحقوق حاضراً في جمع البيانات واستعمال الأدوات. بهذا يخرج القارئ من خيارين يضيقان عليه: التسليم بكل رأي يلبس اسم العلم، والخوف من المعرفة التي تخالف عادة ألفها. يستطيع أن يتعلم بثقة، وأن يصحح بطمأنينة، وأن يحفظ للعلم وظيفته وللوحي هدايته.

حين يتحول المنهج إلى فلسفة

يعتمد العلم التجريبي على الملاحظة والقياس وبناء النماذج واختبارها. قوته في أنه يضبط أسئلة مخصوصة عن العالم المشاهد.

أما القول إن ما لا تقيسه التجربة لا حقيقة له، فليس نتيجة من تجربة مخبرية؛ إنه موقف فلسفي عن حدود الوجود والمعرفة. يعرف الطبيب أثر دواء في عينة محددة، ولا يستخرج من ذلك وحده حكماً عن عدالة توزيعه. ويعرف عالم الأعصاب ارتباط حالة دماغية بقرار، ولا يثبت بالارتباط أن الإنسان بلا مسؤولية أخلاقية. وتكشف الفيزياء كيف تتحرك أجرام، ولا تجيب بأداتها نفسها عن الغاية من خلقها. احترام العلم يكون بحفظ قوته وحدوده معاً.

ويخطئ المتدين حين يحمّل آية نظرية متغيرة ثم يجعلها الدليل الوحيد على صدق الوحي. وقد يخطئ الناقد حين يعد كل تأمل في الكون تدخلاً في عمل المختبر. نستفيد من الاكتشاف، ونفرق بين وصف الظاهرة وتفسير معناها الكلي. بهذا يظل العلم باباً واسعاً للمعرفة والنفع، ولا يتحول إلى اسم جديد لادعاء الإحاطة بكل سؤال.

مصادر الفصل: صحيح مسلم ٢٣٦١، و٢٣٦٣؛ الصفية، ج، ٢ ص ٢٣٥ - ٢٣٤؛ مجموع الفتاوى، ج، ٢ ص ٨٤؛ مفتاح دار السعادة، ج، ١ ص ٨٢ - ٨١؛ [د] «تعظيم الذهنيات» و«إشكالية مناهج قراءة النص».

٩ - العلمانية وموضع الخلاف مع الإسلام

تعيين المقصود أولاً

يستعمل الناس كلمة العلمانية في معان مختلفة. فقد يريد متحدث منع فئة دينية من احتكار السلطة، وقد يريد حماية حق الناس في العبادة، وقد يريد إبعاد الوحي عن مرجعية التشريع والأخلاق العامة. وقد يجمع برنامج سياسي بعض هذه المعاني. معرفة المقصود تسبق الحكم عليه. موضع التعارض مع الإسلام يظهر بوضوح حين تقرر الفكرة أن حكم الله لا حجية له في الشأن العام، وأن الإنسان يملك إباحة ما حرمه الوحي لمجرد اختياره. فالإيمان بالرسالة يتضمن قبول هداية الله في العبادة والمعاملة والحكم بين الناس. يتحدث القرآن عن أداء الأمانات والحكم بالعدل [النساء، ٥٨]: وعن الرجوع إلى الله والرسول عند التنازع [النساء، ٥٩]: وتشمل الهداية علاقة الإنسان بربه وبغيره.

[١] أما رفض تسلط رجال الدين أو نقد رأي فقيه، فيحتاج إلى فحص ما يراد به. العلماء يشرحون الأدلة ويجهدون، ويصيرون ويخطئون. وتظل آراؤهم قابلة للمناقشة العلمية. فالتمييز بين الوحي وفهم البشر له يفتح باب التصحيح، مع بقاء مرجعية الوحي نفسها.

الاعتراض المتعلق بالاستبداد

قد يقول قارئ إن السلطة تستطيع استعمال الدين لحماية نفسها. هذا اعتراض جاد على ممارسة ممكنة، ويستدعي ضمانات للعدل والمساءلة. لكنه لا يثبت أن الدين هو الذي أمر بتلك الممارسة. نستطيع أن نفحص دعواها في ضوء النصوص التي توجب الأمانة وتنهى عن الظلم، وأن نطالب بتوزيع الصلاحيات وسماع المظالم واستقلال الشهادة.

وقد تستخدم السلطة أيضاً أسماء الشعب أو الأمن أو التقدم في تبرير ظلمها. لذلك يحتاج أي نظام إلى قواعد تمنع صاحب القوة من أن يكون الخصم والحكم. في التصور الإسلامي يكون الحاكم محكوماً بما يلزمه من العدل وأداء الحقوق، وتكون الولاية مسؤولية يراعى فيها الأصلح والأقدر على الأمانة، ويختار لها من يجمع الكفاءة والأمانة بقدر المستطاع [٢].

تعيّننا هذه المعالجة على الفصل بين أصل المرجعية وجودة المؤسسة التي تدعي تطبيقها. يمكن أن يكون الأصل صحيحاً، ويحتاج التطبيق إلى إصلاح واسع ومحاسبة صارمة.

ماذا عن اختلاف الناس

وجود أديان واجتهادات متعددة يفرض أسئلة عملية: كيف تصان حقوق الناس؟ وكيف يفصل في النزاع؟ ومن يملك القرار؟ هذه أسئلة تحتاج إلى فقه وعلم بالواقع ومؤسسات عادلة. والجواب الإسلامي عنها لا يبدأ بإسقاط حق المخالف في الحياة والعدل، ولا يجعل جميع المعتقدات صحيحة في وقت واحد.

كما أن المجال العام لا يخلو من قيم مجرد إبعاد اللغة الدينية عنه. عندما يحمي قانون حقاً ويقيّد رغبة أخرى، فإنه يعتمد تصوّراً للإنسان وللضرر وللعدل. يمكن مناقشة ذلك التصور وأدلتها. إعلان الحياد لا يغني عن بيان الاختيارات الكامنة في القرار. وتوجد مساحة واسعة للاجتهاد في الوسائل والإجراءات: تنظيم المرور، وتوزيع المهام، وأساليب الرقابة، وأشكال كثيرة من الإدارة. يتغير الاختيار فيها بحسب الحاجة والخبرة، ضمن القواعد الشرعية. معرفة هذه المساحة تخفف الخوف من أن تعني مرجعية الوحي تعطيل كل قرار بشري.

أثر الخلاف في حياة المسلم

خطورة الفكرة التي تعزل الوحي أنها قد تغير طريقة التلقي تدريجياً: يصبح المسلم قادراً على قبول العبادة الخاصة، ثم يشعر أن حكم

الدين في المال أو الأسرة لا قيمة له إلا إذا وافق معياراً خارجاً عنه. وهنا ينقسم مصدر الالتزام عنده. ويكون العلاج بفهم أدلة الأحكام ومقاصدها، وتمييز الثابت من الاجتهادي، وإظهار العدل في التطبيق. يحتاج الناس إلى خطاب يشرح وإلى واقع يحفظ حقوقهم. وكلما اجتمع البيان الصحيح مع أداء الأمانة، أمكنهم رؤية معنى المرجعية في حياتهم اليومية.

كيف تشكل السؤال العلماني

نشأت صيغ من العلمانية في سياقات صراع أوروبي بين مؤسسات دينية وسلطات سياسية، ثم تعددت دلالاتها: حياد الدولة بين المذاهب، أو فصل المؤسسة الدينية عن الحكم، أو إخراج الدين من التشريع العام، أو اعتباره شأنًا فرديًا. لا يكفي تاريخ النشأة للحكم على كل صيغة، لكنه يفسر لماذا لا يصح نقل السؤال بجوابه إلى مجتمع آخر دون فحص.

موضع الخلاف الجوهري يظهر عندما يطلب من المسلم أن يؤمن بأن الله هدى الناس، ثم يمنع هذا الهدى من أن يكون حجة في المال والأسرة والعدالة والعقوبة. الإسلام لا يقدم رجال دين معصومين يحكمون باسم الله؛ لكنه يقرر أحكامًا وحقوقًا، ويكلف البشر بفهمها وتطبيقها مع إمكان الخطأ والمراجعة.

ولا يحل الإشكال أن تسمى الدولة «مدنية». الاسم قد يدل على رفض الحكم العسكري أو الكهنوت، وهذا لا نزاع فيه من حيث الاسم. إنما ينظر في دستور السلطة: من يملك التحليل والتحرير؟ وكيف تضبط الولاية؟ وما حق المجتمع في محاسبة المسؤول؟ يمكن بناء مؤسسات حديثة ومشاركة عامة وقضاء مستقل، مع بقاء الوحي مرجعاً أعلى وعدم منح الحاكم قداسة دينية.

مصادر الفصل [١]: القرآن، النساء ٥٩-٥٨، و٦٥ والأحزاب [٢].
 ٣٦ السياسة الشرعية، ص ٢١-١٩ وفي فهم الواقع والواجب والعدل: إعلام الموقعين، ج ١، ص ٦٩ وج، ص ٣١١؛ و[د]، «قسمات الانقلاب المعياري» ومباحث مرجعية الوحي.

١٠ - الحرية وكرامة الإنسان

قيمة تحتاج إلى بيان

يحتاج الإنسان إلى مساحة يسأل فيها ويختار ويتعلم، وإلى حماية من الإكراه والمهانة. وتحفظ الحرية قدرته على تحمل المسؤولية. لكن أي حديث عنها يلتقي بحقوق الآخرين وبالسؤال عما يصح أن يختاره الفرد. لذلك لا يكفي الاتفاق على حب الحرية لحسم كل خلاف يقع باسمها. في كتاب «عن الحرية» دافع جون ستيوارت مل عن حرية الرأي وعن حماية الفرد من تسلط المجتمع، وجعل منع الضرر بالآخرين أصلاً بارزاً لتقييد التصرف. ويلفت دفاعه عن النقاش إلى أن منع الرأي قد يحجب حقيقة أو يحول الاعتقاد الصحيح إلى عادة لم يفهم أصحابها حجته. ولهذا وجه نافع في التعليم وحسن إدارة الاختلاف.

ومع ذلك، قيد مل مجال تطبيق مبدئه، فلم يعرضه بالتساوي لكل الأعمار والمجتمعات؛ وورد في كلامه استثناء للمجتمعات التي وصفها بأنها لم تبلغ مرحلة تؤهلها للحرية. قراءة هذا القيد تساعد على فهم النص التاريخي كاملاً، وعلى تجنب التعامل معه كصيغة مجردة حلت جميع مشكلات السلطة.

من يحدد الضرر

تظهر صعوبة المبدأ حين نختلف في معنى الضرر. هل يقتصر على أذى بدني مباشر؟ أم يشمل استغلال الضعف والإدمان وآثارا متأخرة على الأسرة؟ وكيف نعرف مقدار الصلة بين التصرف والنتيجة؟ هذه الأسئلة تحتاج إلى بحث في الوقائع، وإلى تصور أخلاقي لما ينبغي حمايته. وفي التصور الإسلامي نتصل الحرية بمسؤولية الإنسان أمام الله.

فكون التصرف يتم برضا طرفين لا يكفي دائما للحكم بصحته؛ فقد يتعلق به حق ثالث، أو يكون منهيًا عنه في الوحي. والمثال المالي واضح: قد يرضى محتاج بعقد يستغل حاجته، ويبقى علينا بحث عدله وحكمه. وفي الاتجاه الآخر، لا يملك أحد أن يسلب الناس حقوقهم باسم مصلحة غامضة. من ادعى الضرر احتاج إلى بيان، ومن تولى المنع احتاج إلى علم وصلاحيّة ومراعاة للعواقب. بهذا نحفظ المعنى الديني للواجب ونمنع استعماله ذريعة للتحكم الشخصي.

الإنسانية والتكريم

توجد اتجاهات حديثة تجعل ازدهار الإنسان وكرامته مرگراً للأخلاق دون بناء المرجعية على الوحي. يعرض «إعلان

أمستردام» للإنسانية المعاصرة مثلاً لذلك، مع تأكيد العقل والمسؤولية والحقوق. ويمكن الاتفاق مع بعض المطالب العملية الواردة في مثل هذه النصوص، مع بقاء خلاف في مصدر الإلزام ومعنى الحياة.

يقرر القرآن تكريم بني آدم [الإسراء، ٧٠]: ويجعل التفاضل عند الله بالتقوى [الحجرات، ١٣]: يفيد الجمع أن أصل التكريم وحقوق التعامل لا يتوقفان على أن نعد كل اعتقاد صحيحاً. فالإنسان له حرمة، وقد يكون فعله أو قوله محل نقد. احترام الشخص يعين على مناقشة قوله بإنصاف.

حرية تنضج بالتربية

من صور العناية بالحرية أن نعلم الطفل سبب القاعدة، وأن نسمع اعتراض الموظف، وأن نفسح مجاًلاً لتصحيح القرار. ومن صور المسؤولية أن يتعلم صاحب الحق ما يتعلق باختياره من آثار. يحتاج المجتمع إلى الأمرين كي لا تصبح الحرية مجرد قدرة الأقوى على فرض رغبته. وحين يختلف المسلم مع تصور يجعل إرادة الإنسان آخر مرجع في كل شيء، يمكنه أن يبين موضع الخلاف دون انتقاص الكرامة التي يريد الجميع حفظها. السؤال المفيد هو: كيف

نحمي الإنسان من سلطة غيره، ومن ظلم نفسه أيضاً، وفي أي مرجع نستند حين يتعارض الطالبان؟

مبدأ الضرر ومن يعرف الضرر

قدم جون ستيوارت مل دفاعاً قوياً عن حرية الرأي وعن الحد من إكراه الفرد ما دام فعله لا يضر غيره. تفيد حجته في مقاومة استبداد السلطة والجمهور، وفي تذكيرنا بأن الخطأ لا يصحح دائماً بالمنع. لكن المبدأ يترك سؤالاً حاسماً: ما الضرر، ومن يحدده، وهل يقتصر على الأذى الجسدي المباشر؟

قرار فردي قد يصنع سوقاً تستغل الضعفاء، وعادة خاصة قد تضر أسرة كاملة، وخطاب مسموح قد يكشف فساداً أو يحرض على اعتداء. لذلك لا تعمل الحرية بلا تصور للإنسان والخير والحقوق. ورضا طرفين لا يجعل كل عقد عادلاً إذا استغل أحدهما حاجة الآخر أو باع ما لا يملك.

في الإسلام للإنسان مساحة اختيار ومسؤولية، وله حرمة لا تسقط بخطئه. لكنه لا يملك أن يجعل كل رغبة حَقًّا ملزماً للناس، ولا تملك الجماعة أن تحو شخصيته باسم الفضيلة. نحتاج إلى قوانين عادلة، وتربية ضمير، ومساحات نصح، وتدرج يفرق بين الذنب الشخصي والجريمة العامة. الحرية الكريمة قدرة على اختيار الخير وتحمل المسؤولية، لا مجرد غياب كل قيد.

مصادر الفصل: القرآن، الإسراء، ٧٠ والحجرات ١٣؛ مل، عن الحرية، الفصول الأول والثاني والرابع، إعلان أمستردام ٢٠٢٢، ؛ [د] «، غربة الغرب» و«أنسنة العلاقات».

١١ - المصلحة التي تحفظ الإنسان

لماذا نبحث عن النتائج

إذا أنشأنا مدرسة، فمن حق الناس أن يسألوا عما تعلمه الطلاب فيها. وإذا وضعنا إجراءً لمنع فساد، احتجنا إلى معرفة هل قلله أم نقله إلى موضع خفي. الاهتمام بالنتائج جزء من المسؤولية. لكن الحكم على الفعل يحتاج كذلك إلى معرفة الحقوق التي يمسها والطريق الذي يسلكه.

دافع مل في «النفعية» عن معيار يربط الأخلاق بالسعادة ويعطي لمصلحة الآخرين وزناً، ويميز بين كميّات اللذات، كما ناقش العدالة والأمن والحقوق. من الإنصاف لذلك ألا نختزل موقفه إلى طلب اللذة الشخصية أو الربح العاجل. السؤال الأصعب يتعلق بما يلزم حين يبدو أن مجموع المنافع يتعارض مع حق فرد. لنفرض أن نشر معلومات خاصة عن شخص سيجذب اهتماماً يزيد تبرعات مؤسسة. المنفعة المتوقعة لا تجيب وحدها عن حقه في الستر والخصوصية. نحتاج إلى معرفة مشروعية الوسيلة وصدق الضرورة ووجود البدائل. وقد يكتشف من يحسب المنافع أن الضرر طويل الأمد أكبر مما ظن. ويبقى حق صاحب الشأن قضية لا يذنبها إعجاب الجمهور بالنتيجة.

المصلحة في ضوء الوحي

تعني الشريعة بمصالح الناس في دنياهم وآخرتهم، ومبناها تحقيق العدل والرحمة والحكمة على الوجه الذي دل عليه الوحي. وإدخال الآخرة وحقوق الله يوسع معنى المصلحة؛ فقد يكون الفعل مربحاً عاجلاً، ويكون محرماً لما فيه من ظلم أو إفساد. وقد يكلف الوفاء بالواجب مآلاً أو راحة، ويبقى خيراً لصاحبه في ميزان أوسع من الربح القريب [١].

ويتطلب ذلك تمييز المصلحة الشرعية من رغبة المتكلم. قد يقول مدير إن مصلحة المؤسسة تقتضي إخفاء الخطأ، بينما يقتضي حفظ الأمانة كشفه ومعالجته. وقد يسمي صاحب نفوذ بقاءه مصلحة عامة. لذلك نسأل عن الدليل، وعن يستفيد ومن يدفع الكلفة، وعن الجهة التي تراجع التقدير. والحكم السليم يحتاج إلى فهمين متصلين: معرفة ما وقع فعلاً، ومعرفة ما يجب فيه [٢]. فقد يكون منع إجراء ضار واجباً، لكن وصف الإجراء بأنه ضار يحتاج إلى خبرة وبينة. يشرح المختص أثره، ويبحث الفقيه حكمه، ويتخذ صاحب الصلاحية القرار في حدود مسؤوليته.

لا يصح أن تعوض النية الحسنة نقص المعلومات، ولا أن تعوض كثرة المعلومات غياب العدل.

المقاصد والنصوص

المقصد هو الغاية التي دل الشرع على اعتبارها، مثل حفظ الحقوق ودفع الظلم. نعرفه من الأدلة وطرائق التشريع، ثم نستعين به في فهم الجزئيات والنوازل. وحين يبدو التعارض بين مقصد عام ونص خاص، نراجع فهمنا لكليهما، ونجمع أدلة الباب. فلا يصح أن نجعل العدل مرادفا لما نميل إليه، ثم نلغي به كل حكم لا نفهم حكمته بعد. كما لا يصح أن نعزل نصا عن شروطه وسياقه، ثم نطبقه تطبيقاً يضيع المقصد الذي دل عليه مجموع الشرع. العام والخاص يشرح بعضهما بعضاً، ويحتاج الجمع بينهما إلى علم. تنظيم مواعيد خدمة الناس، مثلاً، وسيلة نختارها بقدر نفعها وعدلها. أما أخذ حق شخص بلا مسوغ شرعي، فلا يصير مصلحة معتبرة لأن المؤسسة ترجح منه. معرفة النتيجة وحدها لا تكفي حتى نعرف حق من يتحملها.

وتتغير بعض الفتاوى بتغير الأعراف والوقائع والمصالح التي بنيت عليها. أما الأحكام الثابتة بأدلتها فلا يبدلها مجرد تغير الذوق. يتضح الفرق في عرف يحدد طريقة تسليم سلعة، وفي أصل يوجب الوفاء بالحق. قد تتغير الطريقة ويبقى الواجب [٣].

العلة والحكمة

يسمى الفقهاء الوصف الذي ربط الحكم به «علة»، ويتحدثون عن «الحكمة» بوصفها المصلحة أو المعنى المقصود. وقد يظهر لنا نفع لحكم دون أن يكون هو العلة التي يدور معها وجوداً وعدماً. معرفة الفرق تمنع أن نسقط عبادة إذا ظننا أن فائدتها يمكن تحصيلها بوسيلة أخرى.

فالصوم يعين على تربية النفس، وقد يدرس الباحث آثاراً صحية لبعض صوره، لكن وجوب صوم رمضان لا يعلق على نجاح كل صائم في تحقيق نتيجة صحية واحدة. ومن احتاج إلى معرفة حكم حالته الخاصة رجع إلى تفاصيلها الشرعية والطبية. الأثر الذي اكتشفناه جزء من النظر، وليس وحده تعريف العبادة.

من الفكرة إلى القرار

في قرار يخص الناس، تبدأ المراجعة بتحديد الحاجة والبدائل، ثم فحص الحقوق والأدلة والنتائج المتوقعة. وبعد التطبيق نقيس ما حدث ونصحح الوسيلة عند الحاجة. ونجنب الحيل التي تبقى اسم الالتزام وتفرغ معناه؛ فالعقد يحتاج إلى صدق مضمونه كما يحتاج إلى سلامة عبارته. هذه الطريقة تجعل المقاصد نافعة في الإصلاح. فهي تعين على الاختيار، وتلزم صاحب القرار ببيان حجته، وتحفظ

للقارئ قدرة السؤال عن دعوى المصلحة بدل أن يسلم لها لمجرد جمال اسمها.

بين النفعية والمصلحة الشرعية

تسعى النفعية إلى تعظيم السعادة أو المنفعة العامة، وهي تلفت النظر إلى النتائج بدل الاكتفاء بحسن النية. لكن جمع المنافع في رقم واحد يثير مسائل صعبة: هل يجوز إيلاء بريء لأن الأكثرية ستنتفع؟ كيف نقارن كرامة إنسان براحة آلاف؟ ومن يحمي حق الأقلية حين تكون كلفتها موزعة ومكسب غيرها ظاهرًا؟

المصلحة الشرعية تنظر في النتائج، لكنها لا تبدأ من فراغ. هناك حقوق وحدود ومقاصد ودنيا وآخرة. لا تسمى كل رغبة مصلحة، ولا كل خسارة مفسدة معتبرة. وقد يمنع الطريق النافع في ظاهره لأنه يقوم على ظلم، وقد يتحمل المجتمع كلفة قريبة لحفظ أمانة بعيدة.

اختبار المصلحة في قرار عملي

إذا أرادت مؤسسة جمع بيانات المرضى لتحسين الخدمة، تسأل عن مقدار الحاجة، ودقة المنفعة، وحق المريض، وأمن البيانات، والبديل الأقل كَشْفًا، ومن يملك الوصول إليها. لا يكفي أن تقول «للمصلحة العامة»، ولا يكفي أن يرفضها معترض بكلمة «الخصوصية». الفقه الجيد يجمع وصف الواقع وحكمه، ويبين من يتحمل النفع والضرر. وحين تتغير الوسيلة أو يزول سبب، يعاد النظر في التطبيق، لا في صدق الوحي.

مصادر الفصل [١]: إعلام الموقعين، ج، ٣ ص [٢]. ١١ المصدر نفسه، ج، ١ ص. ٦٩ [٣] المصدر نفسه، ج، ٣ ص، ٣٨ في وجه تغير الفتوى؛ وص، ١٣٧-١٣٥ في نقد الحيل. ولعرض النفع: مل، النفعية، الفصول الثاني والرابع والخامس؛ ولموازنة المصالح: مجموع الفتاوى، ج، ٢٠ ص ١٦٤-١٦٣؛ و[د]»،
التعليل المادي للشرعية» و«مأزق التعظيم النظري للكلي».

١٢ - الدين والتاريخ ودوافع الإنسان

ماذا يفسر السياق

حين نقرأ كتاباً قديماً، يفيدنا أن نعرف أسئلة عصره، واللغة التي كانت مستعملة، والنزاعات التي أجاب عنها. وقد تساعدنا معرفة أحوال التعليم والسلطة والمال على فهم انتشار رأي أو تأخر آخر. يضيء السياق جوانب من التاريخ، ثم يبقى علينا فحص الحجّة التي يقدمها النص. في مقدمة «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي» أعطى ماركس لبنية الإنتاج والعلاقات الاجتماعية دوراً أساسياً في تفسير الحياة الفكرية.

تفيد مناقشة هذا الاتجاه في تذكير القارئ بأثر المصالح والظروف المادية. أما جعلها تفسيراً يستنفد الدين والمعرفة كلها، فيحتاج إلى برهان يتجاوز وجود أثر لها في بعض الحالات. قد تؤثر مصلحة تاجر في رأيه، وقد يصيب رأيه مع ذلك. وقد يدافع شخص محروم عن حق صحيح. فلا تكفي معرفة موقع القائل الاجتماعي للحكم على صدق قوله. يلزم النظر في الدليل، مع الاستفادة من معرفة الظروف التي قد تؤثر في اختياره وعرضه.

المنشأ والصدق

لنتصور طالباً أحب دراسة الطب لأنه شهد مرض قريب له. عرفنا بهذا سبب اهتمامه، ولم نعرف بعد هل ما يقوله في مسألة طبية صحيح. يحتاج صدق قوله إلى أدلته الخاصة. يساعد هذا المثال على الفصل بين قصة تكون الاعتقاد وبين أسباب صحته أو خطئه. يناقش فرويد في «مستقبل وهم» الدين من جهة اتصال بعض الاعتقادات بالرغبة في الحماية وتحقيق الأمنيات. وهو يميز في اصطلاحه بين الاعتقاد المدفوع بالأمنية وبين الحكم بأنه كاذب بالضرورة. هذا القيد مهم في عرض قوله. ثم يبقى السؤال المعرفي: هل الرغبة وحدها تكفي لنفي حقيقة ما نرغب فيه؟

يحتاج الإنسان إلى الماء، وتوجد له حاجة نفسية إلى الصحبة، ولا تدل الحاجة بذاتها على أن موضوعها متخيل. وفي المقابل قد يتنى شيئاً غير موجود. الذي يفصل بين الحالتين دليل مستقل. لهذا يمكن دراسة أثر الخوف والرجاء في التدين دون جعل الدراسة النفسية بديلاً عن بحث النبوة والوحي.

الدافع الديني في التاريخ

وقد يبالغ تفسير سياسي فيجعل كل خلاف ديني صراعاً على السلطة. لا شك أن السلطة دخلت في نزاعات كثيرة، وأن المنتفع

قد يستخدم لغة الدين. لكن بعض الناس يتركون منفعة أو يتحملون أذى بسبب ما يعتقدونه حقاً. يحتاج التاريخ إلى تفسير هذه الوقائع أيضاً. يعرض القرآن دوافع متنوعة لمخاصمة الرسل: اتباع الآباء، والكبر، والاعتراض على مكانة الرسول وأتباعه، ودوافع نتصل بالمكانة والنفوذ، وأقوالاً تتعلق بالبعث والتوحيد. يساعد هذا التنوع على فهم الإنسان بقدر من الاتساع. وقد تجتمع دوافع متعددة في شخص واحد، فلا يحل عامل منها محل جميع البقية.

كيف نستفيد من النقد الاجتماعي

إذا وجدنا مؤسسة تستعمل شعاراً دينياً لحماية امتيازات أصحابها، ففحص ذلك لازم بقدر ما تثبت الوقائع. ونستطيع نقد الظلم بالدليل الشرعي وبالخبرة المؤسسية معاً. كشف الاستغلال يصون حق الناس، ولا يلزم منه إسقاط أصل الدين الذي استعمل اسمه. وعند قراءة التراث نسأل سؤالين متعاونين: ما الظروف التي أحاطت بهذا الكلام؟ وما المحجة التي يقدمها؟ يحفظ السؤال الأول حسناً بالتاريخ، ويحفظ الثاني إمكان المعرفة. وبهما نتجنب تحويل الماضي إلى صورة معصومة، أو إلى مصالح متكرة لا يمكن أن يكون فيها علم صادق.

ما الذي تكشفه التفسيرات المادية

يفيد التحليل الاقتصادي في كشف صلة الأفكار بالمصالح والبنى الاجتماعية. ويفيد التحليل النفسي في كشف أثر الخوف والرغبة وصورة الأب والحرمان. قد يرفع إنسان شعاراً سامياً ليحمي امتيازَه، وقد يصوغ اعتقاداً يخفف قلقه. هذه إمكانيات واقعية، والدين نفسه يحذر من الهوى والرياء وحب الجاه. لكن تفسير منشأ الاعتقاد لا يحسم صدقه. قد يؤمن شخص بحقيقة لأنه تلقاها من أبيه، وتبقى الحقيقة بحاجة إلى دليل مستقل. وقد يرفضها آخر بسبب تجربة مؤلمة، ولا يصير الرفض برهاناً. وإذا قيل إن كل اعتقاد ديني تعويض نفسي، سألنا عن الدليل الذي يعمم الحكم، وعن موقع اعتقاد الناقد نفسه من التفسير النفسي.

وكذلك التاريخ: معرفة الصراع الذي أحاط بقول تعين على فهمه، لكنها لا تثبت أن القول مجرد أداة للصراع. ربما استعملت سلطة حقاً لتثبيت سلطانها، وربما صنعت باطلاً. نحتاج إلى سؤالين لا يغني أحدهما عن الآخر: كيف نشأ القول وانتشر؟ وهل هو صحيح؟ بهذه الثنائية نستفيد من علوم الإنسان دون أن نجعلها محكمة تلغي موضوعها قبل فحصه.

مصادر الفصل: ماركس، مقدمة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ١٨٥٩، ؛ فرويد، مستقبل وهم، الفصل السادس، ص ٣٢-٣٠؛ القرآن، هود، ٢٧ وإبراهيم، ١٠ والزخرف ٢٤-٢٢ و٣١؛ [د]، «ما وراء أنسنة التراث» و«خصوم الدعوات كمعطى تاريخي» و«فكرة الكفر السياسي».

١٣ - كيف نفهم النص

ابدأ بالسؤال الذي يجب عنه

حين تصلنا رسالة من شخص، ننظر في كلماتها وما سبقها ومن كتبت إليه. وإذا اقتطعنا جملة منها فقد نفهمها على غير مراده. قراءة النص تحتاج إلى لغة وسياق ومعرفة بنوع الخطاب. وهذه أمور تزداد عناية حين يتعلق النص بالوحي وبما ينسب إلى الله ورسوله. تبدأ القراءة بالتثبت: هل النص قرآن، أم حديث صحيح، أم خبر يحتاج إلى فحص، أم قول لعالم؟ ثم يأتي فهم الألفاظ والجل وجمع النصوص المتعلقة بالموضوع. وبعد ذلك ننظر في الحكم الذي دل عليه الدليل وفي شروط تطبيقه على الواقعة. ترتيب الأسئلة يحفظنا من مناقشة معنى لم تثبت نسبته، أو تطبيق حكم قبل فهم محله.

وفي التفسير يستعان بالقرآن بعضه على بعض، وبالسنة، وبما ثبت من فهم الصحابة، وباللغة والسياق. ومن الخطأ أن نقرر النتيجة أولاً، ثم نبحث لكل لفظ عن احتمال يخدمها؛ أو أن نختار معنى ممكناً في اللغة ونتجاهل ما يدل عليه سياق الكلام. الأدوات اللغوية تعين على الفهم حين تعمل معاً، ولا يجعل احتمال منفرد جميع القرائن بلا قيمة.

للقارئ دور وحدود

يحمل القارئ خبراته وأسئلته إلى النص. قد يلتفت إلى معنى لم يلتفت إليه غيره، أو يرى تطبيقاً جديداً لحكم ثابت. لكن قدرة القارئ على الإضافة في الفهم لا تمنحه حرية نسبة كل معنى يريده إلى المتكلم. هناك قرائن تجعل تفسيراً أقرب من تفسير. لنفرض أن لائحة تقول إن الأمانة ترد إلى صاحبها. يمكن أن تختلف الوقائع في معرفة صاحب الحق أو طريقة التسليم. أما قراءة العبارة على أنها تبيح أخذ المال بغير رضاه فتحتاج إلى تجاهل معناها. المثال بسيط، لكنه يبين لماذا لا تستوي جميع القراءات لمجرد أن أصحابها بشر.

وفي حديث فوكو عن نيتشه وفرويد وماركس يبرز تصور يجعل التفسير متصلاً بتفسيرات سابقة، ويجعل عمل المؤول نفسه محل مساءلة. يفيد الانتباه إلى ما يحمله القارئ من افتراضات. لكن الانتقال من ذلك إلى انعدام أي معيار يميز المعنى الأقرب يضعف إمكان فهم كلام فوكو نفسه. يمكن أن تكون القراءة متأثرة بخلفية صاحبها وقابلة للتصحيح بالدليل في الوقت ذاته.

السياق التاريخي والحكم

نزول آية في زمن ومناسبة معلومين يساعد على فهمها، ثم يبحث المفسر في دلالة لفظها ومجال حكمها. قد يتعلق الحكم بسبب مخصوص ويتجاوز ذلك السبب بعموم لفظه، وقد توجد قرائن تقيده. التاريخ هنا من أدوات الفهم. أما القول إن كل حكم ينتهي بانتهاء البيئة التي ظهر فيها، فيضيف قاعدة تحتاج إلى دليل. لو أخذنا بها ابتداءً لأصبح الزمن وحده ناسخاً، ولتعذر تفسير استمرار الخطاب للأجيال التالية. وفي المقابل، نقل صورة تطبيق قديم إلى واقع مختلف دون معرفة الفرق قد يخطئ أيضاً. يحتاج الاجتهاد إلى حفظ دلالة النص وفهم تغير المحل.

التجديد الذي يمكن مناقشته

تكون القراءة الجديدة مفيدة حين تبين موضع الإضافة ودليلها: تصحيح خبر، أو جمع نصوص أهملت، أو فهم أدق للواقع، أو تطبيق على نازلة لم تقع من قبل. يستطيع الآخر عندئذ فحص العمل ومراجعته. وقد يأتي اعتراض يستند إلى استحسان معنى معاصر، ثم يعيد تعريف الكلمات لتوافقه. هنا نسأل عن الدليل الذي يصل المعنى الجديد بالنص. وإذا بقيت الصلة مجرد رغبة في نتيجة، ظل الاقتراح رأياً لصاحبه، ولم يصبح تفسيراً للوحي.

في القراءة اليومية تكفي بداية عملية: عندما تستحسن شرحاً، اسأل عما في النص الذي يدل عليه، وما الاعتراض الأقوى عليه. بهذه العادة تتحول القراءة من جمع عبارات تؤيدنا إلى تعلم يوسع فهمنا ويصححنا.

خمس محطات تمنع القراءة المتعجلة

تبدأ القراءة بثبوت المادة: هل هي قرآن، أم حديث صحيح، أم خبر تاريخي، أم قول عالم؟ ثم تأتي الدلالة: ماذا تعني الألفاظ في لسانها وسياقها؟ ثم الجمع: ما النصوص الأخرى التي تتصل بالباب؟ ثم تحقيق الواقع: هل الواقعة التي أماننا هي التي يتحدث عنها الحكم؟

وأخيراً درجة النتيجة: أهى قطعية، أم راجحة، أم محتملة؟ قد يصح الحديث ويخطئ الاستدلال به، وقد تصح النتيجة ويستعمل لها خبر ضعيف، وقد يثبت الحكم ولا تنطبق شروطه على الواقعة. تميز هذه المحطات يمنع القارئ من إسقاط الكل بخطأ جزء، كما يمنعه من حماية الخطأ لأن النتيجة محبوبة.

هل كل قراءة مفتوحة بلا نهاية

لفتت مناهج حديثة النظر إلى دور القارئ والسلطة واللاوعي في التفسير، وهذا نافع حين يكشف اقترافاً خفياً. لكن إذا صارت كل علامة تفسيراً لتفسير، ولم يبق معيار يفرق بين قراءة أمينة واستعمال متعمد، تعذر علينا حتى فهم صاحب النظرية. من يكتب دفاعاً عن الحرية لا يقبل أن ننسب إليه الدعوة إلى العبودية باسم حرية القارئ. قابلية الفهم للخطأ سبب لوضع قواعد التصحيح، وليست برهاناً على استحالة المعنى.

مصادر الفصل: مقدمة في أصول التفسير، ص ٤٠-٣٨؛ إعلام الموقعين، ج، ١ ص ٦٨-٦٩؛ فوكو«، نيتشه، فرويد، ماركس»، ص ٦٧-٥٩؛ [د]«، إشكالية مناهج قراءة النص».

١٤ - التراث والتجديد

ما الذي ورثناه

يضم التراث شروحا للقرآن والحديث، واجتهادات فقهية، وأخباراً تاريخية، وفلسفات وآداباً وعلومًا وعادات. هذه المواد تختلف في مصادرها ودرجاتها. وجودها في كتاب قديم لا يجعلها جميعاً حجة، وحداثة القارئ لا تجعله قادراً على تجاوزها قبل فهمها. والتمييز الأهم يبدأ من الفرق بين الوحي وبين ما كتبه الناس في شرحه وتطبيقه. ثم تتفاوت أقوال البشر بحسب الأدلة والاختصاص وموقع القائل من الواقعة. وخبر تاريخي لا يأخذ حكم الحديث الصحيح لمجرد مجاورته له في الكتاب.

تعطي هذه الخريطة القارئ حرية مسؤولية. يستطيع الاستفادة من تراكم العلم، ونقد رأي ضعيف، والبحث عن وجه أرجح، دون أن يضطر إلى قبول التراث كله أو هدمه كله. وتزداد قدرته على النقد كلما عرف أدوات العلم الذي يناقشه.

لماذا يهم فهم الجيل الأول

لفهم الصحابة وزن خاص؛ فقد تلقوا القرآن وشهدوا بيان الرسول ﷺ وعرفوا لغته وسياق خطابه. وورد في الصحيح تفضيل القرون

الأولى. تدل هذه المنزلة على قيمة علمية ودينية، مع بقاء الحاجة إلى التثبت مما ينسب إليهم وتمييز ما اتفقوا عليه مما اختلفوا فيه. لا يصير كل فرد معصوماً بهذا الفضل، ولا تصير كل مسألة جديدة قد عرفت تفاصيلها في ذلك الزمن. وما ثبت اتفاق السلف عليه في أصل الدين لا ينقض بدعوى قراءة متأخرة. أما ما اختلفوا فيه، أو لم يثبت اتفاقهم عليه، فيبحث بدليله. وقد يضيف المتأخر فهماً لواقعة جديدة أو يكشف وجهاً من الدلالة، مع حفظ ما ثبت من معنى الوحي.

واحترام علم السابقين لا يعني من ينتسب إليهم من النقد. قد يصيب الأصل ويقتصر شارحه في البيان، أو يتعلم المرء قولاً صحيحاً ثم يسيء العمل به. صيانة العلم تشمل تصحيح هذا التقصير؛ فلا تنساب لا يقوم مقام الدليل، ولا يحول الخطأ إلى صواب.

الرواية والفهم

نثبت الرواية أن الكلام صدر ممن نسب إليه بقدر ما يقوم على ذلك من أدلة. أما شرح مراده والجمع بينه وبين غيره وتنزيله على واقعة فعمل آخر متصل به. يحتاج الفقيه والمفسر إلى الصحيح من الأخبار، ويحتاج ناقل الخبر إلى فهم يمنعه من وضعه في غير موضعه.

وقد يختلف العلماء لأن الحديث لم يبلغ أحدهم، أو لأنه لم يثبت عنده، أو لأنه فهم دلالة على وجه آخر. يشرح «رفع الملام» جانباً من هذه الأعذار. معرفة أسباب الخلاف تجعل القارئ أقدر على احترام العالم مع ترجيح قول غيره، وعلى تجنب تفسير كل اختلاف بالهوى.

وكذلك دعوى الإجماع تحتاج إلى تحقق. فالجزم باتفاق العلماء في مسألة أوسع من معرفة قول مشهور فيها. نذكر درجة الدليل بقدر ما ثبت لنا، ونترك للبحث المتخصص ما يتطلب استقراء لا غملكه.

تجديد الإحياء وتجديد الوسائل

يتحقق التجديد بإحياء ما ضعف من العلم والعمل، وتصحيح ما دخل من خطأ، والإجابة عن النوازل بأدوات معتبرة. ويمكن أن يتغير أسلوب التعليم أو شكل المؤسسة أو أداة التوثيق تغيراً واسعاً دون أن يتغير أصل الدين. أما إنشاء عبادة أو أصل اعتقادي ثم نسبته إلى الرسالة فيحتاج إلى دليل عليه، ويضبطه حديث رد ما أحدث في الدين مما ليس منه.

يفيد الفرق أن الجديد في الوسيلة لا يحكم عليه بحكم الجديد في أصل التعبد. والسؤال المحدد هو الذي يساعدنا: ماذا تغير، وفي أي مجال، وعلى أي دليل؟ يستطيع المعلم أن يقدم مسائل قديمة بأمثلة

معاصرة، ويستطيع الفقيه أن يدرس عقداً مستحدثاً، ويستطيع القارئ أن يراجع عادة ورثها. هذه أعمال تجدد الصلة بالعلم عندما تحافظ على أمانة النسبة وتقبل التصحيح.

طبقات الموروث

ليس التراث مستوى واحداً. فيه قرآن وسنة، وفيه إجماع ثابت واجتهاد مختلف فيه، وفيه علم باللغة والرواية، وفيه تاريخ وعادات وأخطاء أفراد. قبول الكل يساوي رفض الكل في تعطيل النقد. نحتاج في كل مادة إلى أداة تناسبها: تحقيق الرواية للخبر، وفهم الدلالة للنص، ومقارنة الأدلة للاجتهاد، ودراسة السياق للعادة. وزن فهم الجيل الأول لا يعني عصمة كل فرد، بل قريهم من لغة الوحي وبيانه العملي، وما ثبت من اتفاقهم في أصول الدين. أما المسائل التي اختلفوا فيها فتبحث بأدلتها، والنوازل الجديدة تحتاج إلى فهم حقيقتها. لا يصح أن يسمى اختيار متأخر «فهم السلف» بلا إثبات، كما لا يصح أن يهمل ما ثبت عنهم لأنه قديم.

تجديد ييني ولا يقطع

التجديد قد يكون إحياء واجب أهمل، أو إزالة عادة نسبت إلى الدين، أو شرح معنى ثابت بلغة أوضح، أو اجتهداً في نازلة، أو ابتكار وسيلة تعليم. وهو يفسد حين يصبح الاسم غطاء لتبديل الأصل ثم الإبقاء على ألفاظه. المعيار ليس عمر الفكرة، بل دليلها ووظيفتها: ماذا تغير، الوسيلة أم الحكم؟ وهل ظهر في الواقع وصف جديد، أم غيرنا النتيجة لأننا لا نحبها؟

مصادر الفصل: صحيح البخاري ٢٦٩٧، و٣٦٥١؛ رفع الملام، ص ٩-٨؛ مجموع الفتاوى، ج، ٤ ص ١٥٥-١٥٤ وج، ٥ ص ١٠-٩؛ [د]»، إشكالية مناهج قراءة النص» و«إشكالية مناهج صيانة الهوية».

١٥ - قراءات حديثة في الدين والتراث

ما السؤال الذي نختبره

كيف نصل معرفتنا الدينية بأسئلة الحاضر؟ لا يكفي أن نختار بين القديم والجديد؛ فكلاهما يضم دعاوى تحتاج إلى دليل. نحتاج إلى التمييز بين تجديد وسيلة التعليم، وتصحيح تفسير، وتغيير المعنى الذي يخبر به الوحي. وقد تجتمع هذه الأعمال تحت اسم واحد، مع اختلاف حقيقتها. سنقرأ نماذج محددة، ونبحث في الصلة بين مقدماتها ونتائجها. لا تختصر هذه النماذج جميع مؤلفات أصحابها، ولا تجمعهم في مدرسة واحدة. وتفيد الطالب حين تعلمه أن يقول: هنا وافقت الدليل، وهنا احتاج الانتقال إلى حجة لم يقدمها النص.

زكي نجيب محمود ومعيار الانتقاء

في فصل «سؤال مطروح» من «تجديد الفكر العربي» يجعل زكي نجيب محمود قابلية الاستعمال في الحياة الحاضرة أساساً لاختيار ما نأخذه من التراث. ولا يقصر أمثله على أدوات الزراعة والبناء؛ بل يدخل معها توزيع الموارث والتعاقد على الزواج. هذه الخطوة هي موضع السؤال: هل تقوم جميع هذه الأشياء بالطريقة نفسها؟ [١] يفيد معيار الكفاءة في اختيار آلة تؤدي عملاً. أما حكم الموارث الثابت بالوحي، فيبحث أولاً في دليله ومعناه، ثم في

الواقعة التي ينطبق عليها. وقد تتطور وسائل حصر التركة وتوثيق الحقوق دون أن تكون سهولة الإجراء سبباً لتبديل نصيب شرعي ثابت.

يحسن سؤال الانتقاء حين يمنع الحفظ المعطل للعمل، ويحتاج إلى تمييز حين يجمع الوحي والأداة البشرية في مرتبة واحدة. الذي نتعلمه هنا أن نعين نوع الشيء قبل اختيار معيار تقويمه: أهو خبر نبث صدقه، أم حكم نبث دليله، أم وسيلة نختبر نفعها؟

حسن حنفي وإعادة بناء المعنى

في مبحث «قصور اللغة التقليدية» من «التراث والتجديد»، يصف حسن حنفي استعمال لفظ الجلالة بما يتصل بحاجات الناس وتطلعاتهم، ويقدم أمثلة تربطه بالطعام والحرية والعدل. وفي سياق التجديد اللغوي يسمح بمعنى يأتي من الروح المعاصرة ولو لم يكن حاضراً في الفكر القديم. موضع الاعتراض هنا أوسع من تغيير أسلوب الشرح [٢].

يمكن دراسة ما يعنيه لفظ في كلام الناس، وكيف يلجأ المظلوم إلى الله. لكن هذا لا يحدد وحده حقيقة الله ولا معنى أسمائه في الوحي. قوله تعالى: «الله خالق كل شيء» [الزمر] ٦٢: خبر عن

الخالق، لا مجرد تعبير عن احتياج المخلوق. إيمان الجائع بأن الله يرزقه قد يدفعه إلى الدعاء والعمل وطلب حقه.

أما جعل الله اسماً لرغبته في الطعام، فيغير موضوع الإيمان. الأثر الاجتماعي ثمة يمكن دراستها؛ ولا يحل محل الحقيقة التي يقوم عليها الاعتقاد. وتجديد العبارة يحسن بقدر ما يبين هذه الحقيقة ويحفظها.

أركان وتاريخية المعرفة

في «إعادة التفكير في الإسلام اليوم» يناقش محمد أركون اللغة والتاريخ وشروط تشكل المعرفة. وفي ص ٢٤ يدرج القرآن، من جهة التعبير عن المعنى في الاستعمال الاجتماعي والثقافي، ضمن التاريخية، ويدعو إلى إعادة تناول مفهوم الوحي في هذا الإطار. وهو ينتقد أيضاً مسلمات الفكر الوضعي الغربي؛ فلا يصح اختزاله في تأييد كل ما هو غربي [٣].

تفيد دراسة التاريخ في معرفة كيف شاع تفسير ولماذا غاب آخر. لكن الانتقال من تغير أحوال التلقي إلى تقرير حدود حقيقة الوحي يحتاج إلى برهان مستقل. وجود لغة بشرية يفهم بها الخطاب لا يثبت أن مصدره بشري، كما أن اختلاف الفهم لا يثبت استحالة معرفة المراد.

لهذا نفحص أمرين: ما الذي أثبتته الدراسة عن تاريخ التلقي؟ وما الحجة التي تنقلنا منه إلى الحكم على الوحي نفسه؟ قبول بعض النتائج التاريخية لا يلزم منه قبول جميع المقدمات الفلسفية التي صاحبها.

أبو زيد وبشرية الفهم

يعرض نصر حامد أبو زيد في «إصلاح الفكر الإسلامي» كيف بنى الفقهاء أحكامهم بأدوات الاستدلال. ثم يقرر في ص ٩٤ أن المدونة الشرعية إنتاج بشري لا يصح إطلاق صلاحيتها دون اعتبار الزمان والمكان. ويتابع في ص ٩٥ ربط مراجعة بعض الأحكام بسياقها وبالتصور الحديث للحقوق. هاتان خطوتان ينبغي فحص الصلة بينهما.

[٤] الفقهاء بشر، ويصيبون ويخطئون. لكن بشرية الشارح لا تعني أن كل ما فهمه من النص غير ملزم. إذا شرح معلم أمراً بالوفاء بالعقد، لم يصبح أصل الأمر مجرد رأي شخصي لأنه شرحه. نحتاج إلى التفريق بين حكم دل عليه الوحي، واجتهاد في فهمه، وتطبيق تغيرت شروطه.

وعليه، فالتنبية إلى التاريخ لا يغني عن بيان الدليل الذي يخصص حكماً أو يثبت تغير محله. وكذلك نقد استغلال الدين في السلطة لا

يثبت إلغاء حجيته في حفظ الحقوق. محل المناقشة هو هذا الانتقال المحدد، مع الإقرار بأهمية السياق والتثبت من فهم النص.

الجابري وحدود الاسم

يناقش محمد عابد الجابري في مقال «مسألة مفهوم المجتمع المدني» إخراج بعض الجمعيات الإسلامية من هذا المفهوم. وتفيد ملاحظته في كشف استعمال الاسم للإقصاء، بدل وصف حقيقة المؤسسة واستقلالها وعملها [٥]. وهي موافقة جزئية لها قدرها، ولا تجعل جميع مشروعات أصحابها متطابقة. إذا قرأ الطالب موقفاً كهذا، أمكنه أن يقبل حجته في موضعها، ثم يدرس ما يختلف معه فيه بدليله. لا يلزمه أن يوزع الكتب على طرفين: قبول كامل أو رفض كامل. وقد يكون في الكتاب الواحد تنبيه نافع واستنتاج يحتاج إلى تصحيح.

ما الذي يحمله الطالب من هذه القراءة

قبل الحكم على مشروع واسع، يستطيع الطالب أن يتعلم فحص دعوى واحدة. يحدد ما قاله صاحبها، وما الدليل الذي ساقه، وما النتيجة التي يريد إثباتها. ثم يسأل: هل يصل الدليل إلى هذه النتيجة، أم بقيت بينهما خطوة لا تبررها المقدمة؟ ويطبق الميزان على الكلام الذي يوافقه أيضاً. قد يستحسن نتيجة دينية صحيحة، ثم

يجد دليلاً ضعيفاً استعمل لإثباتها. يصحح الدليل ويحفظ الحق. بهذه العادة تصبح القراءة تعلماً يوسع المعرفة، ويقل فيها الميل إلى تحويل أسماء الكتب والأشخاص إلى أحكام جاهزة.

ما الذي يجمع هذه القراءات وما الذي يفرقها

تلتقي المشروعات المدروسة في العناية بالحاضر والتاريخ واللغة والإنسان، لكنها لا تتفق في كل شيء. زكي نجيب محمود يسأل عن قابلية الموروث للاستعمال، وحسن حنفي يعيد بناء اللغة والمعنى حول الإنسان، وأركون يوسع سؤال التاريخية ونقد أنظمة المعرفة، وأبو زيد يركز على النص والخطاب وبشرية الفهم، والجابري ينقد توظيف بعض مفاهيم الحداثة في الإقصاء. جمعهم في تهمة واحدة يضعف النقد.

وتظهر القوة حين نناقش نقطة الانتقال في كل مشروع. الاهتمام بحاجات الحاضر لا يثبت أن الحاضر مصدر الحق. وبشرية الفهم لا تثبت استحالة الفهم الصحيح. وتاريخية التلقي لا تثبت بشرية مصدر الوحي. وكشف أثر السلطة لا يثبت خطأ كل معنى تبنته سلطة. هذه ليست ردوداً على الكلمات، بل أسئلة عن الصلة بين المقدمة والنتيجة.

أقوى اعتراض يمكن أن يوجه إلينا

قد يقول صاحب القراءة الحديثة: أنتم أيضاً تقرأون، وتختارون بين الأقوال، وتأثرون بزمانكم؛ فكيف تمنحون فهمكم حصانة؟ الجواب أننا لا نمنحه حصانة. نعرضه على ثبوت النص ولغته وسياقه وجمع الأدلة وما ثبت من فهم السلف، ونقبل تصحيحه. لكن وقوع الوساطة البشرية لا يحو الفرق بين فهم تدعّمه القرائن وفهم يناقضها.

التواضع العلمي يقتضي المراجعة، ولا يقتضي مساواة كل القراءات.

مصادر الفصل [١]: زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي»، سؤال مطروح»، من فقرة الانتقاء العملي إلى مثال المواريث والزواج [٢]. حسن حنفي، التراث والتجديد، الفصل الرابع»، منطق التجديد اللغوي» و«قصور اللغة التقليدية»، البند الأول [٣]. أركون، ، Rethinking Islam Today ص [٤]. ٢٤-٢٣ أبو زيد، Islamic Thought ، ، Reformation of المبحث، ٥٦، ص [٥]. ٩٥-٩٣ الجابري»، مساءلة مفهوم المجتمع المدني»، وانظر القرآن، الزمر ٦٢؛ ومقدمة في أصول التفسير، ص، ٤٠-٣٨ في ضبط صلة التفسير بدليله.

١٦ - العلاقات مع المختلف

الاعتقاد والحق

قد يكون جارك أو زميلك مختلفاً عنك في الدين. تجمعك به حقوق في الجوار والعمل والعقد، وقد تحتاجان إلى التعاون على مصلحة مشتركة. لا نطلب هذه الحقوق أن يعتقد كل منكما صحة دين الآخر، وإنما نطلب الوفاء والعدل وحسن المعاملة. يبين القرآن جواز البر والقسط مع الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم [المتحنة]، ٨: وينهى عن أن يحمل بغض قوم على ترك العدل [المائدة]، ٨: هذه أصول عملية تضبط السلوك حين يكون الاختلاف حاضراً، ويزداد أثرها عندما يصعب علينا الإنصاف.

والولاء الإيماني يجعل للمسلم انتماءً دينياً والتزامات تحكمه، والبراءة من الاعتقاد الباطل تعني رفضه والتمسك بالحق. لا يستنتج من ذلك جواز الغدر أو انتقاص حق ثابت للمخالف. يظل لكل باب حكمه وأدله.

التعاون في عمل محدد

إذا اجتمع سكان حي لتنظيفه أو إعانة محتاج، أمكن تقويم العمل بحسب غايته وطريقته. قد يتعاون فيه مختلفون، ويحفظ كل منهم اعتقاده. وضوح الهدف والحقوق يعين على استمرار التعاون ويمنع أن يتحول إلى مطالبة بمحو الفروق الدينية. وفي مؤسسة مشتركة يحتاج الناس إلى قواعد معلومة: كيف توزع المسؤوليات؟ كيف تحمي المعلومات؟ وكيف تعالج الشكوى؟

الاتفاق على هذه المسائل يحفظ مصالحهم. وقد يبقى بينهم خلاف فكري يناقش في موضعه وبأدبه. ويختلف التعاون المشروع عن المشاركة التي تتضمن تعظيم عبادة تناقض التوحيد، أو الإعانة على ظلم؛ فهذه لا تجوز. أما النشاط المشترك الذي يلتبس نوعه، فيحتاج إلى معرفة حقيقته وما يتضمنه قبل الحكم عليه. بهذا نحفظ البر والحقوق، ونمنع أن تتحول المخالطة إلى إقرار بعبادة تخالف الدين.

الثقة بحسب مجالها

يمكن أن يكون شخص خبيراً أميناً في عمله، فنستفيد من خبرته، مع اختلافنا معه في أصل ديني. الثقة المهنية تتعلق بما عرفناه من

كفاءته وأمانته في مجال معين. ولا تتحول تلقائياً إلى تفويض له في كل ما يخص العقيدة والتربية.

والقاعدة نفسها نافعة مع الموافق. قرب الشخص منا لا يثبت قدرته على كل وظيفة، ولا يغني عن المراجعة وحماية الحقوق. حين تضع المؤسسة معياراً واضحاً للكفاءة، تكون أقدر على أداء الأمانة من مؤسسة تكتفي بالتشابه بين أفرادها.

كرامة لا تحو الاختلاف

قد يخاف بعض الناس أن يؤدي نقد المعتقد إلى إهانة صاحبه، فيطالبون بإسقاط الحكم على الأفكار كلها. ويمكن معالجة الخوف بحفظ الكرامة في طريقة النقاش، وبالتمييز بين بطلان قول وبين الحقوق التي يملكها قائله. نستطيع أن نقول إن دعوى معينة تخالف الإسلام، وأن نشرح سبب ذلك، ونبقى أوفياء بعهدنا مع صاحبها. هذه مهارة أخلاقية يحتاج إليها المجتمع. ويظهر صدقها عندما يمتنعنا الدين من ظلم من لا نوافقه، كما يدفعنا إلى نصره من له حق ولو لم يكن من جماعتنا.

المواطنة والتعاون والحدود

يستطيع المسلم أن يتعاون مع المختلف في إنقاذ مريض، وتعليم طفل، ورد ظلم، وحماية بيئة، وأن يوفي بالعهد ويعدل في

الخصومة. هذه واجبات أو مصالح لا تحتاج إلى ذوبان الاعتقاد. وتستطيع الدولة أن تحفظ أمن الناس وحقوقهم وقضاءهم من غير أن تعلن أن جميع الأديان متساوية في الحقيقة.

المشكلة تظهر حين تخلط لغة التعايش بين حق الإنسان وتصحيح كل اعتقاد، أو حين يخلط متدين بين خطأ الاعتقاد وإباحة الظلم. لنا أن نختلف في أعظم الأسئلة، ولا يبيح ذلك خيانة عقد أو بخس أجر أو اعتداء على نفس. كما لا يطلب منا العدل أن نشارك في تعظيم شعيرة تناقض توحيدنا.

وتحتاج الصور المعاصرة إلى وصف دقيق. حضور مناسبة اجتماعية ليس كأداء عبادة، والعمل مع مؤسسة ليس إقراراً بكل فلسفتها، ورفض مشاركة دينية ليس رفضاً لحقوق أصحابها. بهذا التفصيل يصبح المسلم أقدر على صحة حسنة وهوية واضحة، ويزول الاختيار الوهمي بين القطيعة والذوبان.

مصادر الفصل: القرآن، الممتحنة، ٩-٨ والمائدة، ٨ والحجرات ١٣؛ مجموع الفتاوى، ج، ٣٠ ص ٣٣٩-٣٣٨؛ [د]، «أسنة العلاقات» و«إشكالية مناهج صيانة الهوية».

١٧ - الخلاف الديني وأحكام الناس

أسئلة ينبغي فصلها

عندما نسمع قولاً يخالف الدين، قد نحتاج إلى معرفة حكم القول، وحال قائله، وحقوقه، وطريقة التعامل معه. هذه أسئلة متصلة، لكنها لا تملك جواباً واحداً. قد يكون المعنى باطلاً، ويكون قائله لم يفهمه أو لم تثبت نسبة العبارة إليه. وقد يبقى له حق يحرم الاعتداء عليه مهما كان الخلاف.

ويفرق العلماء بين الحكم العام على مقالة وبين تنزيهه على شخص معين، لما يتطلبه التنزيل من معرفة وشروط وانتفاء موانع. وفي الحكم على المعين يراعى ثبوت القول ومراد قائله، وما يشترطه الحكم من قيام الحجة وانتفاء الموانع بحسب المسألة وحال الشخص. يحتاج هذا الباب إلى علم وعدل، ولا يصلح أن يتحول إلى تبادل للأوصاف بين المتخاصمين.

ومن المسائل ما هو اجتهادي يحتمل خلافاً معتبراً. اختلاف عالمين في دلالة نص أو صحة حديث لا يجعلهما مختلفين في أصل الإيمان بالرسالة. معرفة محل الخلاف توفر على المجتمع خصومات تنشأ من جمع مسائل متفاوتة في حكم واحد.

هل كانت الخصومات كلها سياسية

قد يسأل قارئ: ألم تكن اتهامات دينية كثيرة وسيلة للصراع؟
يمكن أن تقع إساءة الاستعمال، ويجب إثباتها ونقدها حين توجد.
لكن هذا لا يجعل كل مضمون ديني ستاراً للمصلحة السياسية.
فالاعتقاد في الله والبعث والنبوة قضايا لها معان يمكن فهمها
ومناقشتها. تظهر في القرآن خصومات تتصل باستنكار التوحيد أو
إنكار البعث، ومعها دوافع تتعلق بالكبر واتباع الآباء والنفوذ.
يجتمع المعنى الاعتقادي مع سياقه الاجتماعي. إذا محونا أحدهما،
ضاق تفسيرنا عن بعض ما يقوله المصدر.

والأدق عند قراءة واقعة تاريخية أن نسأل عن القول والدليل
والظرف والفعل. قد يكون السلطان استعمل خلافاً دينياً، وقد
يكون صاحب الدعوة تحمل خسارة بسبب اعتقاده. لا يعفينا
الاحتمال الأول من فحص الثاني، ولا يعفينا صدق بعض الدعاة
من نقد من استغل الاسم.

الحقوق والولاية

الحكم العلمي على فكرة لا يمنح الأفراد صلاحية معاقبة أصحابها.
فصل النزاعات وحماية الأمن والحقوق لهما جهات وصلاحيات
 وإجراءات، وتفاصيل تحتاج إلى علم بالشرع والواقع. وقد يؤدي

الاندفاع الفردي إلى ظلم ومفسدة تتجاوز ما ظن صاحبه أنه يعالجه. ويبدأ واجب القارئ في حدود قدرته: يتثبت مما ينقل، ويرد القول بالحجة، ويستعين بمن يحسن البيان، ويمتنع عن التشهير غير المستحق والاعتداء. فإذا كان الخلاف متعلقاً بحق عملي، سلك طريق المطالبة العادلة به.

هذا الضبط يحفظ للدين جديته. فسهولة إطلاق الوصف على الناس تجعل الأحكام أدوات غضب، بينما يحتاج الحكم العادل إلى صبر يفصل الوقائع ويستوعب الاعتراض.

لغة تعين على الرجوع

إذا أخطأ شخص في شرح أصل ديني، فقد يكون تصحيح عبارته وتعليمه وجه الدليل أقرب إلى الإصلاح من إحاطته بأوصاف تجعله يدافع عن نفسه قبل أن يسمع. والرفق في التعليم لا يمنع وضوح الحكم على الفكرة. يمكن أن نقول: هذه العبارة تنفي معنى أثبتته القرآن، وهذا وجه التعارض، ولعل مرادك معنى آخر يحتاج إلى تعبير أدق. يترك هذا البيان مساحة للفهم والرجوع، مع حفظ الحق من الإبهام. ويصبح المجتمع أقدر على تصحيح الخطأ حين لا تتحول كل مراجعة إلى هزيمة شخصية.

حين يختزل الاعتقاد في السياسة

قد تكون للخصومة الدينية مصالح سياسية، وقد يستعمل الحاكم العقيدة لتثبيت سلطانه. لكن هذا لا يجعل كل خلاف عقدي اسماً مقنناً للصراع على السلطة. القرآن ينقل حججاً في التوحيد والبعث والوحي، ويعرض خصوماً فهموا مضمون الدعوة واعترضوا عليه. إلغاء هذا البعد يعيد كتابة التاريخ وفق تفسير واحد قبل فحص الشواهد.

وفي الحاضر يجب التفريق بين المقالة وصاحبها. قد يكون القول في نفسه قولاً كفرياً، ولا يحكم على معين حتى تعرف دلالة عبارته، وشروط الحكم وموانعه، وما بلغه وما قصده في العبارة المحتملة. ولازم القول لا ينسب إلى صاحبه آلياً. هذا التفصيل يحمي أصل الدين من التميع، ويحمي الناس من الأحكام المتعجلة.

أما الولاية والحقوق المدنية فلها أبوابها وشروطها ومصالحها، ولا تختزل في الانفعال تجاه المخالف. الدولة العادلة تحتاج إلى قواعد معلومة، وقضاء، وبينة، ومسؤولية. وحين يختلط الحكم العلمي بالعقوبة السياسية يصبح الخطأ مضاعفاً: يفسد العلم وتنفلت السلطة.

مصادر الفصل: القرآن، سورة ص، الآية، ٥٠، ٧٩-٧٨ والزخرف ٢٤-٢٢؛ مجموع الفتاوى، ج، ١٢ ص ٤٦٦-٤٦٥ وج، ٣٥ ص ٢٨٨؛ [د]، «، خصوم الدعوات كمعطى تاريخي» و«فكرة الكفر السياسي».

١٨ - السلم والقوة والوفاء

لماذا يجب الناس السلام

في السلام أمن للأسر وفرصة للتعلم والعمل، وفي الحرب خسائر قد تمتد إلى من لم يختارها. لذلك يستحق تجنب العنف عناية جادة، وتستحق وسائل التفاوض والصلح والإغاثة بناءً وصبراً. وقد ينجح حوار طويل في حفظ حقوق لا تحميها مواجهة متسريعة. وتقوم الحجّة الأقوى لمن يدعون إلى السلم المطلق على الخوف من أن يولد العنف عنفاً، وأن تستعمل كل جهة لغة الدفاع لتبرير اعتدائها.

هذا خطر واقعي من جهة إمكان وقوعه، ويستدعي التثبت والمساءلة وتقييد استعمال القوة. لكن جعل الامتناع عن كل قوة قاعدة لا تستثني دفع العدوان يترك المعتدى عليه بلا حماية حين تفشل الوسائل الأخرى. لهذا يعالج الإسلام أحوالاً مختلفة، ويشرع دفع العدوان مع النهي عن التعدي [البقرة، ١٩٠]: ويقرر الميل إلى السلم في موضعه [الأنفال، ٦١]: لا يكتمل الفهم بآية معزولة عن بقية الباب وشروطه.

المشروعية والحدود

وجود سبب مشروع لاستعمال القوة لا يجعل كل تصرف يصدر أثناءه مشروعاً. تظل الحقوق والعهود وحدود الفعل محل اعتبار، ويحتاج تقدير القدرة والمآل إلى معرفة تتجاوز الحماس. يركز هذا الفصل على نقد الامتناع المطلق عن القوة وعلى وجوب العدل والوفاء. أما فقه الجهاد فأوسع من مثال دفع العدوان؛ إذ يتصل في التصور الشرعي بنصرة الدين وإقامة العدل في حقوق الله وحقوق خلقه. وتفصيل أبوابه وشروطه وولايته، وتنزيل أحكامه على نزاع معين، يحتاج إلى بحثه وأهله وصلاحياته [١].

ويحفظ الوفاء بالعهد إيماناً بالتعامل بين الناس. إذا صارت العقود تبدل كلها تغيرت المصلحة القريبة، فقدت الثقة معناها واتسع الخوف. لذلك يحتل الوفاء مكاناً في النظر الشرعي، وتحتاج دعوى نقضه إلى ما يثبتها في بابها، بعيداً عن رغبة الفرد في الانتقام. وقد يتوهم شخص أن شدة غضبه للحق تمنحه قدرة أكبر على معرفة ما يصلحه. والغضب قد ينبه إلى ظلم، لكنه قد يحجب تفاصيله ونتائج الرد عليه. يحتاج صاحب الغيرة إلى علم يوجهها، وإلى من يستطيع أن ينصحه ويوقفه عند الحد. ومقادير المصلحة والمفسدة توزن بضوابط الشرع ومعرفة الواقع، ولا يجعلها الحماس حقاً خاصاً لكل فرد يختار به ما يشاء [٢].

سلام له أسباب

يحتاج السلام العادل إلى مؤسسات تسمع الشكاوى، وإلى إجراءات تمنع الإفلات من المسؤولية، وإلى حماية للضعفاء من ابتزاز الأقوياء. وقد تهدأ الأصوات ويبقى الظلم قائماً، فيكون الهدوء هُشاً. معالجة الأسباب تزيد فرصة الاستقرار. ويبدأ بعض هذا العمل قريباً منا: تسوية نزاع في العمل بإجراءات واضحة، ومنع الإساءة في المدرسة، ورد حق دون إذلال صاحبه.

نتعلم في هذه الصور أن حفظ العلاقة لا يقتضي كتمان الظلم، وأن المطالبة بالحق لا تبيح كل طريقة.

الرحمة والقدرة

تكون القدرة أمانة حين تستعمل لحماية من لا يستطيع حماية نفسه، وتضبط بالقواعد التي تلزم صاحبها. ويكون الصبر فضيلة حين يعين على اختيار الطريق الأفضل، مع بذل ما يمكن من عمل. الجمع بين الرحمة وحسن التقدير يمنع أن تستبد بنا صورة البطولة أو صورة المسالمة على حساب حق الناس.

ولهذا لا يقاس الموقف الصائب بمقدار ما فيه من شدة أو لين وحدهما. يقاس بما يستند إليه من حق، وبمعرفته بالواقع، وبالتزامه

الحدود. هذه عناصر يحتاج إليها من يناقش أخبار العالم كما يحتاج إليها من يصلح خلافاً في محيطه.

لماذا لا يكفي شعار السلم

السلم نعمة، لكنه قد يكون اسماً لبقاء المعتدي آمناً والمظلوم عاجزاً. ومنع كل استعمال للقوة لا يلغي القوة؛ بل يتركها لمن لا يتقيد بالعدل. لذلك شرعت مقاومة العدوان، وقيدت بعدم الاعتداء، وأمرت بالوفاء والميل إلى السلم حين تتحقق شروطه. ولا يعني ذلك أن كل دعوى دينية تبيح حمل السلاح أو أن تقدير المصلحة متروك لكل فرد. أبواب القتال والولاية والعهد والقدرة لها فقهها، وتنزيلها على نزاع معين يحتاج إلى علم بالشرع والواقع وصاحب صلاحية. يركز هذا الفصل على رفض السلم المطلق وعلى أخلاق القوة، ولا يغني عن ذلك الفقه التفصيلي.

القوة العادلة

تسأل القوة العادلة عن المشروعية قبل الفاعلية، وعن حدود الوسيلة أثناء العمل، وعن حق غير المقاتل، وعن العهد، وعن المال المتوقع. وقد يكون الامتناع في لحظة حكمة، ويكون في أخرى تخلياً عن واجب. ليست الشجاعة اندفاعاً دائماً، كما أن الحكمة ليست انسحاباً دائماً. الميزان هو الحق والقدرة والمصلحة المعتمدة، لا صورة البطل في أعين الجمهور.

مصادر الفصل [١]: مجموع الفتاوى، ج، ٢٨، ص، ٢٦٣ في مقاصد الدين والعدل [٢]. المصدر نفسه، ج، ٢٨، ص، ١٢٩-١٢٨ في القدرة والمصالح والمفاسد وضوابط الأمر والنهي. وانظر القرآن، البقرة، ١٩٠ والأنفال، ٦١ والمائدة ٨١، و[د]، «أطروحة السلم المطلق».

١٩ - العبادة وحياة القلب

لماذا نصلي

قد يقول شخص إن الصلاة تمنحه سكينة، ويقول آخر إنها تعلمه النظام، ويلاحظ ثالث أنها تجمع الناس. هذه معان يمكن أن تتحقق، لكنها لا تستوعب سبب الصلاة ومعناها. يصلي المسلم امتثالاً لله وذكراً له وتقرباً إليه، ويرجو قبول عمله وثوابه. يقول الله لموسى: «وأقم الصلاة لذكري» [طه. ١٤]: يضع هذا المعنى العلاقة بالله في قلب العبادة. وتأتي الآثار النفسية والاجتماعية في مكانها من ثمراتها، مع اختلاف تحققها بين الناس والأحوال.

وقد يصلي الإنسان وهو يعاني مشقة، ويبقى لصلاته معناها وإن لم تحول فوراً إلى شعور مريح. إذا اختزلنا العبادة في تدريب على الهدوء، صار من السهل أن نبث عن بديل يؤدي الأثر نفسه ثم نسأل عن الحاجة إليها. نشأ السؤال هنا من تعريف ناقص. فاللقاء بمن نحب لا تختصر قيمته في أثره الصحي، فكيف بعلاقة العبد بربه التي يتوقف عليها أصل غايته؟

والمثال يقرب معنى الاختزال ولا يسوي بين العلاقتين.

المعرفة التي تحرك النفس

يصف القرآن المؤمنين بتأثر قلوبهم عند ذكر الله وزيادة إيمانهم عند تلاوة آياته [الأنفال، ٢]: ويذكر أثر القرآن في الجلود والقلوب [الزمر، ٢٣]: يستجيب الإنسان للمعنى بعقله وقلبه، وقد يكون التأثير ثمرة فهمه لما يقرأ. لهذا لا يعد الوجدان ضعفاً في المعرفة لمجرد أنه وجدان. قد يفرح المرء بحق عرفه، ويحزن لتقصيره، ويخاف عاقبة ظلم. وتعينه هذه المشاعر على العمل إذا صحبها معرفة صحيحة.

ومع ذلك، قد تبكينا قصة لا تثبت، وقد يؤثر فينا متحدث حسن الأداء وهو يخطئ. نتحقق من الخبر قبل أن نبني عليه اعتقاداً أو حكماً. صدق الشعور لا يكفي لإثبات صحة كل ما أثاره. وتظهر في خطبة النبي ﷺ كما رواها جابر قوة التأثير والبيان مع الدعوة إلى هدي معلوم.

حقوق الله والآثار الظاهرة

قد ينتظم مجتمع في بعض حقوق التعامل، ويبقى فيه إعراض عن عبادة الله. يستحق ما أحسنه أهله الاعتراف، ولا يصبح بذلك قد حقق جميع ما يطلبه الإسلام من الإنسان. فالصدق مع الناس من الدين، وأصل الدين توحيد الله وإخلاص العبادة له.

وتبقى الصلاة وسائر الفرائض واجبات لا يغني عنها حسن التعامل، كما لا تبيح كثرة الشعائر ظلم الناس.

وفي المقابل، يحتاج المصلي إلى أن يرى أثر عبادته في حفظ الحقوق. إذا اعتاد الغش ثم اطمأن إلى كثرة ما يصنعه من شعائر، فقد فصل في عمله ما جمعه التكليف. العبادة تدعوه إلى التوبة وإصلاح ما أفسده، مع استمرار أداء ما أوجبه الله عليه.

عبادة تناسب الحال

يعين فقه العبادة على ترتيب الوقت. عندما يتعين حق للوالدين نبادر إليه في وقته، وفي العمل نحفظ الأمانة، وعند حضور الصلاة نوّديها كما شرعت. لا نبث عن عمل نرتاح إليه ثم نجعله عذراً لترك ما تعين علينا. نسأل عما يرضي الله في الحال التي نحن فيها، ونعطي كل حق موضعه.

يمكن للقارئ أن يبدأ بمراجعة صلاة واحدة بين عبادته وسلوكه: هل يزيده ذكر الله صدقاً عند نقل خبر؟ هل يتذكر حق من يعمل معه؟ وهل يفسح لنفسه وقتاً يتعلم فيه ما يعبد به ربه؟ تأتي الثمرة من عمل معلوم يمكن المداومة عليه، ثم تتسع مع العلم والإخلاص.

حين تختزل العبادة في فائدتها العاجلة

قد تبين الدراسات أثر الصلاة في السكينة أو أثر الصوم في ضبط العادة، وهذه فوائد نفرح بها. لكن الصلاة لا تصبح عبادة لأن المختبر أثبت أثرًا نفسيًا، ولا يسقط معناها إذا اختلف الأثر بين الناس. أصلها توحيد الله وامثال أمره والوقوف بين يديه. التعليل المادي وحده يقلب العلاقة: يجعل الأمر الإلهي مقبولا ما دام ينتج فائدة يرضاها العصر. فإذا ظهرت وسيلة أسرع إلى الاسترخاء، بدا كأنها تغني عن الصلاة. أما المؤمن فينتفع بالثمرات ويفهم أن العبادة أوسع منها؛ فهي مبنية على معرفة الله ومحبه والخضوع له وذكره، وتربي النفس على أن لها ربًا.

الإيمان الذي يمس القلب

ليس الإيمان قائمة معلومات باردة. القرآن يصف وجل القلوب وزيادة الإيمان وتأثر الجلد والقلب. والانفعال الصادق لا يقوم مقام العلم، لكنه يخرج من الورق إلى الحياة. يخاف العبد فيترك الظلم، ويرجو فينهض بعد الفشل، ويحب الله فيؤثر رضاه. ومن لم ير أثر المعرفة في اختياره فليفتش في فهمه وفي حياة قلبه معًا.

مصادر الفصل: القرآن، طه، ١٤ والأنفال، ٢ والزمر ٢٣؛ صحيح مسلم ٨٦٧، ؛ العبودية، ص ٥٤-٤٣؛ مدارج السالكين، ج، ١ ص ١١١-١٠٩؛ [د] «،
التعليل المادي للشرعة» و«الانفعال الوجداني بالإيمان».

٢٠ - حقوق الله والعدل بين الناس

حق لا يزاحم حقاً بالتوهم

قد تعرض علينا قضية كأن علينا الاختيار بين حق الله وحق الإنسان. وفي مسائل كثيرة يكون هذا التقابل ناشئاً من فهم ناقص؛ لأن الله أمر بالعدل والإحسان والوفاء، وجعل الاعتداء على الناس معصية له. أداء حقوقهم من طاعته. ويظل الله حق في التوحيد والعبادة لا يختزل في حسن العلاقات الاجتماعية. يمكن أن نحسن التعامل مع الجار، ونحتاج أيضاً إلى إصلاح صلتنا بالله. يوسع هذا النظر دائرة المسؤولية بدل أن يسمح لنا بالاكتفاء بفضيلة واحدة نحسنها.

وقد تتزاحم واجبات في واقع معين، فتحتاج إلى فقه يقدر الاستطاعة والوقت وما يترتب على التأخير. تزاحم التطبيق يعالج بأدلتها، ولا يدل على أن أصل الحقوق متناقض.

العدل عندما يكلفنا

يسهل الثناء على العدل ما دام يؤيد موقفنا. ويظهر امتحانه عندما يكون الحق لمن نخاصمه، أو عندما يكشف خطأ قريب منا. يأمر القرآن بالقسط ولو على النفس والوالدين والأقربين [النساء] ١٣٥:

تضع الآية انتماءات الإنسان القريبة أمام مسؤولية الشهادة. في مؤسسة، قد يبلغ موظف عن خلل يرتكبه شخص محبوب. يحتاج المسؤول إلى فحص البلاغ وحماية الحقوق وسماع الطرفين. المحافظة على سمعة المؤسسة لا تتحقق بكتمان كل خطأ، بل بقدرتها على المعالجة العادلة. وتصلح هذه الصورة لقياس الفرق بين شعار الأمانة ونظام يعمل بها.

ويحتاج العدل إلى كفاءة أيضاً. القاضي أو المدير الذي يجهل الوقائع قد يريد الإنصاف ثم يخطئ. لذلك يجمع النظر في الحقوق بين حسن القصد ومعرفة التفاصيل وتجنب التسرع.

النصيحة ومسؤوليتها

التواصي بالحق من معاني التعاون بين المسلمين. ويحتاج الناصح إلى معرفة ما ينصح فيه، وإلى التفريق بين أمر ظاهر ومسألة تحتاج إلى اجتهاد، وإلى طريقة تناسب حال المخاطب. وقد يكون الكلام الخاص أبلغ في الإصلاح وأحفظ للكرامة. ولا تجعل النصيحة كل فرد صاحب ولاية على غيره. التعليم والإقناع يختلفان عن الإلزام والعقوبة، ولكل منهما حدود. وقد يؤدي تدخل غير مدروس إلى زيادة الخطأ أو ضياع حق، فيحتاج الناصح إلى مراجعة وسيلته.

وتظهر فائدة الفرق في إمكان سماع الجواب. فقد يكون ظاهر الفعل ناقصاً لأننا لم نعرف عذراً أو تفصيلاً. يسأل الناصح قبل أن يجزم، ثم يبين ما علمه. بهذه الطريقة يصبح المجتمع أكثر تعاوناً على الخير وأقل انشغالاً بمراقبة الناس بلا بينة.

من الخلق الفردي إلى الإجراء

يمكن أن تتحول قيم العدل إلى إجراءات واضحة: بيان الحقوق قبل التعاقد، وتسجيل القرارات، وإتاحة طريق للاعتراض، ومنع المسؤول من الحكم في منفعة تخصه وحده. هذه أمثلة تديرية تقبل التطوير بحسب الواقع. وتبقى التربية لازمة؛ لأن النظام مهما أحكم قد يترك مجالاً للاختيار. تحتاج المؤسسة إلى من يؤدي الأمانة حين يقدر على إخفاء الخلل.

وحين يجتمع خلق الفرد مع إجراء يحفظ الحق، يجد الناس أثر الدين في خدمة يستطيعون الاعتماد عليها.

ترتيب الحقوق لا مقايضتها

قد يقدم خطاب حقوق الناس كأنه بديل عن حق الله، وقد يقدم آخر كثرة الشعائر كأنها تعفي من ظلم الناس. الوحي يجمعهما: عبادة الخالق وأداء الأمانة والعدل. لا يقبل من موظف أن يؤخر

مصالح الناس بحجة نافلة، ولا من مصلح اجتماعي أن يجعل خدمته للناس إذنا بترك ما افترض الله عليه.

وعند تراحم واجبين لا يكفي رفع الشعار. ننظر في تعيين كل حق ووقته وقدرة المكلف وما يفوت بالتأخير. إنقاذ نفس في لحظة يختلف عن اجتماع يمكن تأجيله، والواجب العيني يختلف عن عمل قام به من يكفي. هذه المعرفة تمنع التقوى من أن تتحول إلى فوضى حسنة النية.

النصيحة في المجال العام

النصيحة علم وقصد وطريقة ومآل. يجب أن يكون المنكر منكراً بدليل، وأن تكون الواقعة معلومة، وأن يقصد الناصح الإصلاح، وأن يختار وسيلة لا تزيد الظلم بغير مصلحة راجحة. وقد يحتاج الأمر إلى بيان علني، وقد تكون المعالجة الخاصة أنفع. لا يجعل الخوف من الخطأ الصمت فضيلة دائماً، ولا تجعل الجرأة كل تشهير نصيحة.

مصادر الفصل: القرآن، النساء ٥٨، ١٣٥ والمائدة، ٨ والعصر ٣؛ السياسة الشرعية، ص ٢١-١٩؛ مجموع الفتاوى، ج ٢٨، ص ١٢٩-١٢٨؛ إعلام الموقعين، ج ١، ص ٦٨-٦٩؛ [د]، التعليل المادي للشرعة» و«شبهة الدوغمائية».

٢١ - الكلام الواضح والفكرة العميقة

لماذا تعجبنا العبارة الصعبة

قد نقرأ جملة مليئة بمصطلحات لا نعرفها، فنشعر أن معناها أعمق مما نستطيع فهمه. وربما كان وراءها علم حقيقي يحتاج إلى تعلم، وربما كانت تجمع كلمات لا تبني دعوى محددة. معرفة الفرق تحرر القارئ من النجل من السؤال. يحتاج كل علم إلى ألفاظ مختصرة تجمع معاني يطول شرحها. يستعمل الطبيب والمهندس والفقيه مصطلحات لها وظيفة. ويستطيع المتخصص غالباً أن يشرح للقارئ معنى المصطلح ومجال استعماله، حتى إذا بقيت تفاصيل تحتاج إلى دراسة. وهذه هي الصعوبة النافعة: تخفي وراءها معنى يمكن الوصول إليه بالتعلم.

أما الغموض الذي ينتقل من عبارة إلى أخرى كلما طلبنا تحديدها، فيجعل الفكرة عصية على الاختبار. وقد تكتسب سلطة من هيبة لغتها. نستطيع احترام تخصص لا نعرفه، وأن نطلب في الوقت نفسه شرح الدعوى التي يراد منا قبولها. فصعوبة اللفظ ليست دليل عمق المعنى، وسهولة العبارة لا تنفيه.

جرب أن تصوغ مثلاً

لنتأمل عبارة: «المعنى نتاج شروط القراءة». يمكن أن يراد بها أن خلفية القارئ تؤثر فيما يلتفت إليه، وهذا أمر يمكن شرحه بمثال. ويمكن أن يراد بها أن النص لا يدل على معنى يرح على غيره أصلاً. هذه دعوى أوسع ولها مشكلات أخرى. لم نحتاج إلى رفض العبارة كلها؛ احتجنا إلى معرفة ما تدعيه.

ثم نختبر المثال. إذا قرأ شخصان عقداً، فهل يستطيع أحدهما أن ينسب إليه ما يناقض عبارته؟ وإن أخطأ أحدهما، فما معيار الخطأ؟ تساعد هذه الأسئلة على كشف ما إذا كانت الفكرة تصف أثر الخلفية في الفهم، أو تلغي إمكان التمييز بين الفهم والتحريف. ويستطيع الكاتب نفسه أن ينتفع بالتمرين. إذا عجز عن تقديم مثال يناسب قاعدته، فقد يحتاج إلى ضبطها. وقد يكون المثال كاشفاً عن استثناء مهم. الوضوح هنا أداة تفكير قبل أن يكون زينة أسلوب.

التبسيط الذي يحفظ الأمانة

تسهل الفكرة عندما نشرح مصطلحها ونبين صلتها بما يعرفه القارئ. وتضعف عندما نحذف قيداً يغير نتيجتها. فإذا كان البحث يثبت أثراً في ظروف محددة، فلا نحوله إلى قاعدة لجميع الناس. وإذا

كان العلماء مختلفين في مسألة، فلا نقدم اختياراً اجتهادياً كأنه محل اتفاق لمجرد تسهيل الشرح.

ومن التبسيط النافع الفصل بين ثلاث جمل: ما يقوله المصدر، وما نفهمه منه، وما نعترض به عليه. بهذا يستطيع القارئ متابعة الكلام دون أن يحمل صاحب المصدر رأينا نحن. وتظهر الأمانة خصوصاً في عرض الرأي الذي نخالفه.

لغة تخدم المجتمع

في درس أو مقال أو اجتماع، يمكن أن نبدأ بالسؤال ثم نقدم المعنى والدليل والمثال. ونترك للمراجع ما يحتاج إليه المتخصص من تفصيل. كلما فهم الناس المقصود، أصبحوا أقدر على مناقشته وتطبيقه وتصحيحه. وتساعد اللغة الواضحة على توزيع المعرفة بدل احتكارها. يستطيع الموظف أن يعرف حقه، والطالب أن يفهم سبب القاعدة، والقارئ أن يسأل عن دليل الدعوى. هذه منافع اجتماعية للبيان، ويستحق الكاتب أن يبذل جهداً كي يصل المعنى إلى من يحتاج إليه.

كيف تعمل سلطة الغموض

يمنح الغموض بعض العبارات هيبة؛ لأن القارئ يخشى أن يكون قصوره هو سبب عدم الفهم. وقد يستعمل الكاتب مصطلحاً في

أكثر من معنى، فإذا نوقش في نتيجة عاد إلى معنى آخر. وقد يكس أسمى ومذهب بدل بيان الصلة بينها. لا يثبت ذلك أن كل كتابة صعبة فارغة، لكنه يجعل طلب التوضيح حقاً علمياً.

نختبر العبارة بأربع خطوات: نطلب تعريف المصطلح، ونصوغ دعواه في جملة، ونضع مثلاً يدخل فيها ومثلاً يخرج منها، ثم نسأل عن الدليل والنتيجة. إذا بقي المعنى عميقاً بعد التوضيح فقد تعلمنا. وإذا انهار، فقد كان الغموض يؤدي وظيفة البرهان. والوضوح مسؤولية الناقد أيضاً. لا يكفي أن يقول «هذه علمانية» أو «هذا تأويل» ثم يتوقع من الاسم أن يقوم بالجملة. يبين المعنى المخالف، وأثره، ودليله. القارئ العادي ليس عاجزاً عن الفكرة الكبيرة؛ إنما يحتاج إلى سلم يصعد به، لا إلى أن يخفي الكاتب الدرج ثم يلومه لأنه لم يصل.

مصادر الفصل [د:] «سلطة الغموض»؛ درء تعارض العقل والنقل، ج، ١ ص

٧٥- ٧٩؛ مقدمة في أصول التفسير، ص. ٤٠-٣٨

٢٢ - هل أضعنا دنيانا

السؤال الذي يمكن إصلاحه

إذا قلنا إن المسلمين متأخرون، بقيت العبارة واسعة حتى نعرف المجال والبلد والزمن والمعيار. قد يحسن مجتمع جانباً ويتراجع في آخر، وقد تنجح مؤسسة وسط ضعف عام. التحديد يعطينا مشكلة نستطيع دراستها بدل شعور عام بالعجز أو الغضب. لنفرض أن مدرسة لا تعلم طلابها القراءة كما ينبغي. يمكن البحث في تدريب المعلمين، ووقت التعلم، وطريقة التقويم، وإدارة الموارد، وأحوال الطلاب. وبعد التشخيص نضع خطة ونقيس أثرها. أما الاكتفاء بمدح الماضي أو اتهام الأمة كلها فلا يجيب عن حاجة الطفل الذي يتعلم اليوم.

والاعتراف بالخلل مسؤولية. من يحب مجتمعه يريد له أن يعرف مواضع تقصيره، ويحرص على إنصاف العاملين فيه. تظهر العزة في القدرة على التصحيح كما تظهر في حفظ الانتماء. ومن المفيد التفريق بين شدة الرغبة في متاع الدنيا وبين حسن عمارتها. قد ينشغل الناس بالمظاهر والمكاسب السريعة، ويقصرون في التعليم والعمل الطويل. فلا يدل ضعف الإنتاج وحده على أنهم زهدوا في الدنيا أو بالغوا في بناء آخرتهم. وقد نبه القرآن إلى محبة العاجلة

[القيامة]. ٢٠: يتطلب التشخيص أن نعرف كيف أنفقت الجهود، وما القيم التي حكمت الاختيار، بدل افتراض أن كل تقصير مادي سببه زيادة التدين.

الدين وأداء المنتسبين إليه

قد ينسب شخص فشلاً إلى الإسلام لأن الفاشلين مسلمون. تحتاج هذه النسبة إلى بيان الصلة بين تعاليم الدين والفعل الذي أدى إلى النتيجة. فإذا كان السبب غشاً أو إهمالاً نهى عنهما الدين، فإن وقوعهما من مسلم لا يحولهما إلى مقتضى الإسلام. وفي الوقت نفسه لا يعفينا هذا الفرق من نقد فهم ديني خاطئ ربما شجع على التقصير. قد يستعمل شخص التوكل ليبرر ترك العمل، أو القناعة ليبرر حرمان الناس من حقوقهم، أو الطاعة لينع كل نصيحة. نعالج هذا الفهم بالدليل، ونصلح أثره العملي.

ونقد المنتسبين إلى الخير له أصل في كلام العلماء. فلا يحفظ الدين بتحصين من يرفع اسمه من المساءلة. يحفظ بإظهار الحق والتزامه، وببيان موضع الخطأ دون تعميم يتجاوز ما ثبت.

الأسباب التي بين أيدينا

أمر القرآن بإعداد الاستطاعة في موضعها [الأنفال]، ٦٠: ودلت نصوص كثيرة على الأمانة والإحسان. ويحتاج تحقيق القدرة إلى

تعلم طويل وتنظيم وموارد ومثابرة. حسن النية يعين على هذا الطريق، ويحتاج إلى وسائل تعمل في الواقع. إذا أرادت مؤسسة تحسين خدماتها، تبدأ بهدف معلوم، وتعين المسؤولية، وتوفر المهارة، وتتابع النتيجة. وحين نتعثر تبحث في السبب المحدد: هل الخطة غير مناسبة؟ أم لم تنفذ؟ أم كانت الموارد دون المطلوب؟ لكل احتمال علاج يختلف عن غيره.

وتعلمنا الخبرة من الآخرين دون أن نفقدنا مرجعيتنا. قد نأخذ طريقة ناجحة ونكتشف أنها تحتاج إلى تعديل، وقد نبتكر حلاً أنسب لبيئتنا. المهم أن يكون الحكم على ما تحقق، وأن يبقى حق المستفيد حاضراً.

الدنيا التي نريد إصلاحها

ورد في دعاء النبي ﷺ طلب إصلاح الدين والدنيا والآخرة. يجمع هذا الدعاء جوانب يحتاجها الإنسان جميعاً. بناء المعاش الصالح يعين على العبادة ويحفظ حقوق الخلق، ويمنحهم فرصة للتعلم والعمل. وحين نراجع واقعنا بهذا النظر، يصبح السؤال أنفع: ما العمل الذي أملك تحسينه؟ قد يبدأ الجواب بدرس يتقنه معلم، أو حق يرده تاجر، أو إجراء يزيل مشقة عن الناس. تتجمع الأعمال المنظمة، ويتسع نفعها حين نتصل بمؤسسات تحفظها وتطورها.

من السؤال المؤلم إلى العمل الممكن

تراجع مجتمعات مسلمة في التعليم والإدارة والصناعة حقيقة مؤلمة، ولا يصلح إنكارها بحكايات المجد. لكنه لا يثبت أن الإسلام سببها. لإثبات السببية نحتاج إلى بيان الآلية، ومقارنة الأزمنة والمجتمعات، وفصل الدين عما يفعله المنتسبون إليه. قد يكون بين الأسباب استبداد، وفساد، وضعف تعليم، وحروب، وتبعية اقتصادية، وخلل في فهم الدين والعمل به.

والجواب الدفاعي وحده لا ييني مختبراً. يطلب منا الصدق أن نعترف بالتقصير، ثم نصلح ما نقدر عليه: تعليم يربي على السؤال والأمانة، ومؤسسة تختار الأكفأ، وسوق يمنع الغش، وبحث يراجع نتائجها، وإدارة تقيس خدمتها. هذه أعمال دينية ومدنية معاً بمعناها الصحيح. لا نحتاج إلى الاختيار بين جلد الذات وتبرئتها. الأول يحول الهزيمة إلى هوية، والثاني يحول الإيمان إلى ستار. نملك تراثاً من المعاني والقيم، ونحتاج إلى علم وصناعة ونظام. والنهضة تبدأ حين يتحول سؤال «من أضعافنا؟» إلى «ما الحق الذي أضعناه، وما العمل الذي نستطيع إتقانه اليوم؟».

مصادر الفصل: القرآن، الأنفال، ٦٠ والنساء، ٥٨ والقيامة ٢٠؛ صحيح مسلم ٢٧٢٠؛ مجموع الفتاوى، ج، ٤ ص ١٥٥-١٥٤؛ [د] «هل أضع المسلمون دينهم» و«الإسلاميون ضد الحضارة» و«إشكالية إلغاء المدنية».

٢٣ - الاستقامة والابتلاء وتأخر الثمرة

حين يعمل الإنسان ولا يرى ما يرجو

قد يجتهد صاحب مشروع نافع ثم يتأخر نجاحه. وقد يكون أميناً فيفقد منفعة حصل عليها غيره بالغش. تتزاحم عنده أسئلة عن عدل الله، وعن صحة طريقه، وعن جدوى الاستمرار. يحتاج إلى فهم لا ينكر ألمه ولا يجعل كل نتيجة قريبة حكماً نهائياً على حياته. يبين القرآن أن المؤمنين يبتلون [العنكبوت، ٢]: وأن الحياة موضع اختبار. وتشمل سنن العمل شروطاً وأسباباً، ويشمل حساب الإنسان ما يظهر في الدنيا وما يؤخر إلى الآخرة. لذلك لا تكون الاستقامة عقداً يضمن الثراء والراحة في كل وقت.

كما أن نجاح شخص في الدنيا لا يخبرنا وحده عن منزلته عند الله. قد يكون ثمرة سبب أتقنه، ويبقى سؤال شكره واستعماله له. وقد ذكر الوحي الاستدراج في موضعه، لكن تعيين أن نعمة شخص بعينه استدراج يحتاج إلى علم لا نملكه من ظاهر نجاحه وحده.

وعد له سياق وشروط

نقرأ النصوص التي تعد بالخير مع ما تبينه من إيمان وعمل وتقوى وصبر، ومع النصوص التي تشرح الابتلاء والعاقبة. جمعها يمنع أن

ننتزع وعدًا ثم نحمله توقعًا لم تدل عليه عبارته. وقد تكون الثمرة
جماعية تحتاج إلى مدة وعمل متراكم، بينما ينتظر الفرد أثرًا سريعًا
لعمل واحد. وقد يتقن جانبًا ويقصر في آخر. فهم هذا التفاوت
يحمينا من وعد الناس بما لا نملك، ومن سوء الظن إذا لم يقع ما
تخيلناه.

وللاستقامة خير في الدنيا أيضًا. يربط القرآن بين الإيمان والتقوى
وفتح البركات [الأعراف، ٩٦]: ويعد من عمل صالٍ أح وهو
مؤمن بالحياة الطيبة [النحل، ٩٧]: تؤمن بهذا الوعد في دلالته، مع
جمعه بنصوص الابتلاء وعدم اختزاله في مقدار المال. وبعض آثار
الطاعة قريب ندر كه: الصدق يحفظ الثقة، والعدل يصون الحقوق،
والإخلاص يعين على الثبات. وتبقى بركة الله وفضله أوسع من
الأسباب التي أحطنا بها.

والآخرة جزء أصيل من المعيار. قد يموت الإنسان قبل أن يرى
ثمرة إحسانه، ولا يضيع عمله عند الله. هذا الرجاء يعينه على أداء
الحق الذي لا يكافئه عليه السوق أو الجمهور.

الصبر ومراجعة الوسيلة

إذا تأخر أثر خطة تعليمية، فالصبر على الرسالة لا يمنع فحص
الخطة. ربما كان المحتوى جيدًا وطريق عرضه غير مناسب، أو

كان الهدف أكبر من الوقت المتاح، أو لم تصل الخدمة إلى من يحتاجها. يمكن تغيير الوسيلة مع الثبات على الغاية الصحيحة. يفيد أن نفصل بين سؤالين: هل العمل الذي نريده حق؟ وهل الطريقة التي اخترناها تحقق غرضها؟ قد يصح الأول وتحتاج إجابة الثاني إلى تعديل. وإذا جمعناهما جعلنا كل نقد للإدارة اعتراضاً على المبدأ، فضاعت فرصة التعلم.

وتبدأ المراجعة بوقائع يمكن معرفتها: ما الذي فعلناه؟ وما الذي تغير؟ وما البديل المتاح؟ ثم نستعين بمن لديه خبرة، ونقبل أن التصحيح قد يتطلب الاعتراف بخطأ سابق.

رجاء يعين على الاستمرار

التوكل يحرر الإنسان من اعتقاد أنه يملك جميع النتائج، ويحثه على بذل السبب الذي يستطيع. والصبر يحفظه من ترك الحق بسبب ألم قريب. وتعينه الصحبة الصالحة على التمييز بين تعب الطريق وبين فساد الوسيلة. إذا جمع العامل بين هذه المعاني، استطاع أن يفرح بنجاحه دون اغترار، وأن يتعلم من تعثره دون يأس. ويبقى مستعداً لأن يعمل خيراً لا يرى ثمرته كاملة؛ لأنه يرجو رباً لا يضيع أجر المحسنين.

لماذا لا تكون النتيجة الفورية ميزان الحق

قد يستقيم فرد ويبتلى، وقد تفسد مؤسسة وتربح أعواماً. الدنيا ميدان عمل وابتلاء وليست آلة تمنح كل إنسان جزاءه كاملاً فوراً. لذلك لا يصح أن يجعل النجاح العاجل دليل رضا الله، ولا أن يجعل تأخر النصر دليل بطلان الطريق. وفي الوقت نفسه لا يجوز استعمال الابتلاء لتغطية سوء التخطيط.

إذا فشل مشروع خيري، نفحص هدفه وإدارته وموارده واقتراضاته. الصبر لا يعني تكرار الخطأ، والتوكل لا يلغي السبب. قد يكون الطريق حقاً والوسيلة ضعيفة، وقد يكون الهدف حسناً والبيانات ناقصة. مراجعة الوسيلة من الصدق مع الله. يجمع المؤمن بين ثلاثة أمور: يثبت على الأصل الصحيح، ويتعلم من الواقع، ولا يربط قيمة عمله بتصفيق الناس وحده. فإذا جاءت الثمرة شكر، وإذا تأخرت راجع وصبر، وإذا ظهر خطؤه رجع. هذا أهدأ من نشوة نجاح سريع ويأس فشل سريع، وأقرب إلى بناء طويل النفس.

مصادر الفصل: القرآن، العنكبوت، ٢ والأعراف ٩٦ و، ١٨٢ والنحل، ٩٧ ويوسف ٩٠؛ صحيح مسلم ٢٧٢٠؛ مدارج السالكين، ج، ١ ص ١٥٤ - ١٥٣؛ الفوائد، ص ٩٢ - ٩٤؛ [د]، تأجيل نتائج الاستقامة.

٢٤ - الجمهور وأمانة الكلمة

حين يصبح القبول مريحا

يفرح المتحدث بمن يفهمه ويقدره. وقد يعينه قبول الناس على الاستقرار في تعليمهم. تبدأ المشكلة عندما يصبح هذا القبول شرطاً لاختيار ما يراه حقاً، فيخفي جزءاً أو يغير معنى كي يحافظ على صورته. للجمهور أثر في الكلام الذي يختاره المتحدث. قد يتجنب كاتب تصحيح معلومة يحبها قراؤه، أو يبالغ في وصف خصم لأن المبالغة تلقى استحساناً. وقد يسكت عن حكم يخشى أن ينفر منه المتلقي.

تختلف الصور، ويجمعها خطر أن يصبح القبول أثمن عند المتكلم من الأمانة. ويشمل هذا الضغط الجماعات المحافظة والمتساهلة وغيرها. فقد يتردد شخص في الاعتراف بخلاف معتبر خوفاً من اتهامه بالتفريط. وقد يتردد آخر في بيان أصل ثابت خوفاً من وصفه بالتشدد. يحتاج الطرفان إلى استقلال يعيد الحكم إلى الدليل.

البيان الذي يراعي الناس

مراعاة حال القارئ عمل صحيح. نختار لغة يفهمها، ونبدأ بما يحتاج إليه، ونشرح ما قد يلتبس، ونتردد في التعليم. هذه أعمال تقرب

المعنى إليه. أما حذف جزء مؤثر من الحقيقة حتى يظن القارئ أن المصدر يقول ما يجب، فيغير ما نقلناه له. يمكن للمعلم أن يقول إن للمسألة تفصيلاً يحتاج إلى وقت، ثم يشرح القدر المناسب الآن. ويمكنه أن يميز بين أصل متفق عليه واختيار اجتهادي. الصدق في تحديد النطاق يحفظ الثقة، ويجنب التلهيد صدمة اكتشاف ما أخفي عنه.

والأسلوب الهادئ يعين على سماع الحجة. يستطيع الكاتب أن يصرح بأن فكرة تناقض أصلاً إسلامياً، ثم يشرح وجه التناقض دون أن يملأ الفقرة بالاتهامات. قوة الحكم تستند إلى وضوح دليله.

ما الذي تفعله العبارة القصيرة

تسهل مشاركة جملة جذابة، وقد يفقد القارئ معها الشرط الذي يغير معناها. لذلك يحتاج من ينشر إلى أن يسأل: هل بقيت الفكرة صحيحة بعد الاختصار؟ وهل قد تحمل على أشخاص أو وقائع لم يقصدها النص؟ وقد تتحول تسمية عامة إلى حكم يتجاوز أدلتنا، حتى إذا لم نذكر أسماء.

عبارة «كل دعاة المدنية يفعلون كذا» تحتاج إلى استقراء واسع، بينما قد لا نملك إلا أمثلة محددة. الأدق أن نصف الطريقة التي ثبتت في النص الذي ناقشه، وأن نترك ما عداه لما يثبت فيه.

وينطبق هذا على الكتابة الدينية أيضاً. فقد يحمل اقتباس مبتور رأياً على عالم لم يقله، أو يحو قيداً جعله أساسياً في حكمه. احترام القارئ يقتضي أن نحفظ له المعنى الذي يحتاجه ليحكم.

الثقة التي تتسع للتصحيح

إذا نشرنا خطأً، فتصحيحه يساعد على حماية من تلقاه. ويمكن بيان ما تغير وسببه دون استعراض أو تهرب. وقد يخسر المتكلم إعجاباً عابراً، لكنه يبني علاقة أصدق بالمعرفة. ويستطيع الجمهور أن يعين على ذلك بأن يقدر الاعتراف بالخطأ، وألا يجعل المتحدث أسيراً لكل جملة قالها. حين يصبح الرجوع علامة أمانة، تتسع قدرة المجتمع على التعلم، ويقل احتياج الناس إلى الدفاع عن مواقف تجاوزها الدليل.

كيف يصنع المخاطب بعض الخطاب

يعرف المتحدث غالباً ما يكافئه به جمهوره: جملة حادة، أو قصة تؤكّد خوفهم، أو تنازل يريحهم، أو عدو يصلح لكل مشكلة. ومع الزمن قد يختار الأدلة التي تحفظ مكانته. لا يحتاج الأمر دائماً إلى كذب واع؛ يكفي أن يتعلم العقل أي الأسئلة تجلب القبول وأياها تكلفه العزلة.

ولهذا تكون أمانة الكلمة أصعب حين يصفق الجمهور. يسأل الكاتب نفسه: هل كنت سأقبل هذا الدليل لو خدم خصمي؟ هل نسبت إلى جماعة كاملة ما ثبت في أفراد؟ هل حذفت قيِّداً لأنه يضعف الإيقاع؟ وهل قدمت الخوف بدل المعرفة؟ مراعاة الناس ليست نفاقاً. البيان الحكيم يختار لغة يفهمونها، ويرتب الحق، ويتدرج، ولا يثقل عليهم بما لا يحتاجون إليه. الفرق أن الحكمة تغير طريقة الوصول ولا تغير حقيقة المقصد. أما التبعية للجمهور فتجعل رضاه هو الذي يحدد ما يقال وما يسكت عنه. ومن أراد أثراً طويلاً احتمل خسارة بعض التصفيق ليحفظ ثقة القارئ.

مصادر الفصل [د] «نفوذ المخاطبين» و«إشكالية التعميم»؛ الفوائد، ص ١٤٩؛
مجموع الفتاوى، ج، ٣٥ ص. ٢٨٨

٢٥ - هوية نتعلم وتعمل

ماذا نحفظ حين نحفظ الهوية

الهوية الإسلامية صلة بالإيمان والعبادة واللغة والمعرفة والجماعة، ويظهر صدقها في العمل والخلق. قد يحتفظ الإنسان بأسماء ورموز كثيرة، وتضعف معرفته بما تعنيه. لذلك تبدأ صيانتها بالتعليم الذي يصل اللفظ بالمعنى، وبحياة يرى فيها المتعلم أثر ما يعرفه. لا يكفي أن نحذر الشباب من كل فكرة مخالفة ثم نترك أسئلتهم بلا جواب. يحتاجون إلى معرفة أصول دينهم، وإلى قدرة على تمييز الدليل من الانطباع، وإلى من يستطيع أن يسمع حيرتهم. ويتدرج التعليم بحسب الاستعداد؛ فما يناسب المتخصص قد يربك المبتدئ إذا قدم له بلا تمهيد.

ويعالج الخوف من التأثير ببناء القدرة على الفهم والاختيار، مع العناية بالبيئة والصحة. يستطيع المرء أن يتعلم من غيره بقدر ما يعرف ما يبحث عنه وما يحكم به على ما يسمع. ويحتاج هذا البناء إلى تربية القلب أيضاً. فالانبهار بالمظهر قد يبقى قوياً ولو عرف الإنسان بعض الحجج. يعينه تذكر الآخرة، ومعرفة قدر ما عند الله، والعبادة التي تصل القلب به، على أن يعطي المال والشهرة منزلتهما المناسبة. وتستحق الأجيال المفضلة التقدير بإيمانها وعملها،

وإن اختلفت أدوات معيشتها عن أدواتنا. حين يفهم الشاب هذا الميزان يستطيع أن يحب التحسن في معيشته دون أن يجعل مستوى الاستهلاك حكماً على قيمة الإنسان.

اللغة باب إلى العلم

تعين العربية على فهم الوحي ومصادره، وتعطي القارئ قدرة على الوصول إلى معان قد تختصرها الترجمة. ويعين تعلم لغات أخرى على معرفة ما كتبه أصحابها وتوسيع الخبرة. يمكن للغتين أن تخدمًا عقلاً مستقلاً يعرف غايته. وتضعف الاستفادة إذا أصبحت اللغة الأجنبية علامة تفوق في كل موضوع، أو إذا ظننا أن حماية العربية تقتضي رفض ما كتب بغيرها.

المعيار هو جودة المعرفة وأمانة استعمالها. وقد يحمل لفظ مترجم معاني مختلفة، فيحتاج إلى شرح قبل إدخاله في نقاش ديني. في التعليم، يمكن وصل هذا المعنى بعمل واضح: يقرأ الطالب نصاً قصيراً ويفهم حجته، ثم يقارن شرحين له ويعرف سبب اختلافهما. يتعلم أن السؤال جزء من الدراسة، وأن الاختلاف له أسباب يمكن بحثها.

المعرفة التي لا تنقسم في حياة صاحبها

قد يتلقى الطالب مادة دينية تحثه على الأمانة، ثم يرى الغش وسيلة مقبولة للتفوق في بقية يومه. يحتاج إلى أن تصل التربية بين ما يعرفه وبين قراراته. وكذلك العالم أو المهني يحتاج إلى أن تظهر القيم في طريقته في جمع المعلومات ونسبتها وحفظ حقوق الناس. يساعد المشروع العملي على هذا الوصل. حين يعمل الطلاب معاً على خدمة نافعة، يتعلمون التخطيط والوفاء بالوعد وتوزيع المهام ومراجعة الخطأ. ثم يناقشون كيف اتصلت هذه الأعمال بالصدق والأمانة والإحسان. يصير المعنى الديني حاضراً في الفعل الذي فهموا حاجته.

الانتماء والتعاون

تمنح الجماعة صاحبها صحة وذاكرة ومسؤوليات. ويمكن لهذا الانتماء أن يقويه على الإنصاف، أو أن يضعفه إذا صار التعصب للجماعة أعلى من الحق. يحجبه الوحي حين يأمر بالعدل ولو على الأقربين. ولا تذوب الهوية لمجرد التعاون مع مختلف في عمل مشروع. يحفظ الإنسان أصوله، ويعرف ما اتفق عليه وما اختلف فيه، ويؤدي العهد. ومن تمام الاستقلال أن يحسن الاستفادة من خبرة لا يملكها دون أن يمنح صاحبها سلطة مطلقة على اعتقاده.

بيت يساعد على الفهم

في البيت يبدأ كثير من هذا البناء من حوار صغير. إذا سأل الابن عن عادة يراها في مجتمع آخر، يستطيع الوالدان أن يشرحاً ما فيها من نفع أو ضرر، وأن يفرقا بين الدين والعادة، وأن يعترفا بما يحتاج إلى سؤال. يتعلم الابن من هذه الطريقة أن الثقة بدينه تحتمل التعلم.

وحين يرى الصغير وفاءً بوعده واحتراماً للعامل واعتذاراً عن خطأ، يجد للمعاني التي يسمعها صورة حية. تتماشك الهوية بما نعلمه وبما نفعله، وتصبح أقدر على الاستمرار عندما يجد الناس فيها علماً وعدلاً ونفعاً.

الحماية التي تقوى بالمعرفة

قد تخاف الهوية المشقة من السؤال؛ لأنها قامت على ألفاظ لم يتحقق معناها. أما الهوية المتعلمة فتعرف أصولها وأدلتها وتاريخها، وتفرق بين الدين والعادة، وتستطيع قراءة المخالف بلغته. لذلك لا تصان الهوية بعزل الطالب عن العالم، بل بتعليمه كيف يقرأ ويقارن ويحكم. وتبدأ الخطوة من اللغة: عربية قوية لفهم الوحي والتراث والواقع المحلي، ولغة عالمية تفتح أبواب العلم. ليست إحداهما عدواً للآخرى.

المشكلة أن يتعلم الطالب لغة التقنية ويفقد لغة المعنى، أو يحفظ نصّوصاً عربية ولا يستطيع قراءة بحث في تخصصه.

هوية تظهر في العمل

ثبت الهوية حين تتحول إلى أمانة في الموعد، وعدل في التقييم، وجودة في المنتج، ورحمة في الأسرة، وشجاعة في قول الحق. وقد يرفع المرء شعار الانتماء ثم يسيء إلى معانيه بكسله وظلمه. ويحسن آخر بعض القيم المشتركة، فتتعلم منه الأداء ولا ننسب إليه ما لم يقل من الاعتقاد.

الانتماء الناضج لا يحتاج إلى عدو دائم كي يشعر بوجوده. يعرف ما يحفظه، وما يتعلمه، وما يتعاون فيه، وما يرفضه بدليل. وهكذا يصبح حاجزاً ضد الذوبان ودافعاً إلى المشاركة النافعة في وقت واحد.

مصادر الفصل: القرآن، النساء، ١٣٥ والمائدة ٨٢؛ صحيح البخاري ٣٦٥١، ؛ اقتضاء الصراط المستقيم، ج، ١ ص ٥٤٩-٥٤٨؛ مجموع الفتاوى، ج، ٤ ص ١٥٥-١٥٤؛ [د]، «إشكالية مناهج صيانة الهوية».

٢٦ - الوحي وسؤال الحضارة في حياتنا

من الفكرة إلى قرار معلوم

مررنا بأسئلة عن الإنسان والتقدم والمعرفة والحقوق. وتلتقي هذه الأسئلة عندما نختار عملاً حقيقياً: ماذا نريد أن نحقق؟ وهل الغاية مشروعة؟ وما الذي نعرفه عن الوسيلة؟ وأي حق قد يتأثر؟ وكيف نصحح إذا أخطأنا؟ يمكن لهذه الأسئلة أن ترافق قراراً صغيراً أو مشروعاً واسعاً. وهي تجمع مرجعية الوحي مع الحاجة إلى الخبرة. فالدليل الشرعي يبين ما يلزمنا من حق، ومعرفة الواقع تعين على أداء ذلك الحق في صورته المحددة.

لننظر إلى ثلاث صور افتراضية تقرب هذا الجمع. لا تقدم أجوبة تفصيلية عن كل نازلة، وإنما تظهر طريقة يمكن للقارئ أن يبدأ بها، ثم يرجع إلى أهل العلم والخبرة في موضع الحاجة.

مدرسة تستفيد من تجربة ناجحة

تريد مدرسة تحسين تعلم الطلاب، فتطلع على برنامج مطبق في بلد آخر. تبدأ بتحديد ما تريد تعلمه: هل المشكلة في وضوح الشرح، أم في متابعة الطالب، أم في تدريب المعلم؟ بعد ذلك تختبر ما في البرنامج من وسائل، وتنظر فيما يحتاج إلى تعديل. وقد يتضمن

البرنامج تصوّرًا عن الإنسان والأسرة والدين يحتاج إلى مراجعة مستقلة. تفصل المدرسة هذا التصور عن الأدوات التعليمية، وتحفظ ما ثبت نفعه ووافق أصولها، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل. ثم تقيس ما تعلمه الطلاب بالفعل.

تظهر هنا فوائد أبواب عدة: تحديد معنى التقدم، وفصل الخبرة عن المرجعية، وصيانة الهوية بالتعلم، ومحاسبة الوسيلة على أثرها. ويصبح حرص المدرسة على الدين دافعا إلى خدمة طلابها بكفاءة.

مؤسسة تريد أن يثق الناس بها

قد تعلن مؤسسة أنها تخدم المجتمع، ثم يتأخر ردها على الشكاوى. يبدأ الإصلاح بسماع أصحاب الحقوق، ومعرفة سبب التأخر، وتعيين من يتابع الحل. ويحتاج المسؤول إلى معلومات صادقة، حتى إذا أظهرت قصورا في إدارته. بعد ذلك توضع إجراءات يمكن للعاملين فهمها: واجبات معلومة، وتوثيق للقرارات، وطريق اعتراض، ومراجعة للمصالح المتعارضة.

وتظل التربية على الأمانة حاضرة؛ لأن الإنسان يتخذ قرارات لا تراها الأوراق كلها. إذا تحسنت الخدمة، فذلك أثر يمكن ملاحظته. وإذا لم تتحسن، نراجع السبب ونعدل الوسيلة. لا يغني

اسم الخير عن هذا العمل، كما لا تختصر الأرقام وحدها قيمة المؤسسة إذا حصلت على نجاحها بتضييع حقوق لا تظهر فيها.

أسرة تقرأ خبراً مؤثراً

تصل إلى أفراد الأسرة رسالة اتهم جماعة أو تبشر باكتشاف يوافق ما يحبون. يبدأ التثبت بالسؤال عن المصدر وما قاله فعلاً. ثم يميزون بين الخبر وتفسيره، وبين حالة معينة وحكم عام. وإذا تعلق الكلام بحكم ديني رجعوا إلى من يحسن بيانه. قد يتبين لهم أن الرسالة اختصرت قيماً مهماً، أو أن الصورة لا تثبت ما كتب عليها، أو أن الخبر صحيح لكن النتيجة أوسع منه. الامتناع عن نشرها عندئذ عمل نافع، وإن لم يلفت الأنظار. يحفظ حق من قد يتضرر، ويحمي ثقة الناس بالكلمة.

ونتعلم الأسرة من هذا الموقف أن الانتماء إلى الحق يلزم بالتثبت حتى فيما يسرنا. فإذا أخطأ أحدهم، أعانته طريقة الحوار على التصحيح دون إذلال. هذه ثمرة قرينة لاحترام العقل والوحي والكرامة معاً.

ما الذي نريد أن يزداد

نريد أن تزداد معرفة الناس بدينهم، وقدرتهم على أداء أعمالهم، وعدلهم عند الاختلاف. ونريد أن يعرفوا قيمة ما أحسنه غيرهم،

وأن يحفظوا استقلال حكمهم عندما يخالف قول دليلاً ثابتاً. ويحتاج هذا إلى تعليم وصبر وقدوة ومؤسسات نتعلم من أخطائها. لا يطلب من كل قارئ أن يحل جميع أسئلة الحضارة. يستطيع أن يبدأ بما تحت يده، وأن يتعاون مع من يكمل نقصه، وأن يسأل حيث لا يعلم. وتكبر منفعة المعرفة حين تنتقل إلى فعل يصدقها: حق يؤدي، وعمل يتقن، وخطأ يصحح، وعبادة تحيي صلة العبد بربه.

يهدي الوحي الإنسان إلى معرفة ربه وغاية حياته، ويبين له ما يلزمه في مقاصده ووسائله. وتعينه الخبرة والعلم والصناعة على معرفة الواقع وإتقان العمل، فينتفع بما ثبت نفعه ضمن ما أذن الله به. وكلما أحسن العلم والعمل، كان أقدر على حفظ دينه وأداء حقوق الناس وعمارة الأرض بإحسان.

سبعة أسئلة للقرار الحضاري

يمكن رد مباحث الكتاب إلى سبعة أسئلة عملية: ما الغاية؟ وما حقيقة الشيء الذي نريد أخذه أو تغييره؟ وما الدليل على نفعه؟ وما الحكم الشرعي المتصل به؟ ومن ينتفع ومن يتحمل الضرر؟ وما البدائل؟ وكيف نراجع القرار بعد تطبيقه؟ هذه الأسئلة لا تحول كل قارئ إلى متخصص، لكنها تمنعه من تسليم عقله للشعار.

اختبار المدرسة والسوق والمنصة

إذا أرادت مدرسة اعتماد برنامج عالمي، تفحص أثره التعليمي ومحتواه وصورته للإنسان، ثم تعدله حيث يحتاج من غير تضيق فائدته. وإذا عرض السوق عقدًا عالي الربح، لا يكتفي بنسبة العائد؛ بل يبحث الملكية والمخاطرة والعدل وحق الطرف الأضعف. وإذا وعدت منصة رقمية بخدمة مجانية، يسأل المستخدم عما تجعبه من بيانات وكيف تصنع عاداته ومن يملك قرار الحذف.

في الأمثلة الثلاثة لا يعطينا الانبهار جوابًا، ولا يعطينا الخوف جوابًا. نحتاج إلى خبير يصف الواقع، وعالم يبين الحكم، ومسؤول يتحمل القرار، ومستخدم يستطيع الاعتراض. بهذا يصبح الوحي مصدر هداية يعمل داخل الحياة، لا شعارًا فوقها.

المعنى الذي يبقى

الحضارة قدرة منظمة، وقد تبلغ بالإنسان آفاقاً من النفع أو الأذى لم يعرفها من قبل. والوحي يعطي القدرة وجهتها ويذكر حاملها بأنه عبد مسؤول. حين يجتمعان لا يصبح التدين عذراً للعجز، ولا يصبح التقدم إذناً بإعادة تشكيل الإنسان على هوى الأقوى. نأخذ الحكمة، ونتقن العمل، ونقيم العدل، ونعبد الله؛ وهذه ليست أربعة طرق متباعدة، بل وجوه حياة واحدة حين يستقيم ميزانها.

مصادر الفصل: القرآن، الذاريات، ٥٦ والنساء ٥٨، ١٣٥ والمائدة ٢ و٨؛
العبودية، ص ٤٤ و٤٩-٤٨؛ مجموع الفتاوى، ج، ٤، ص، ١٩٦ في العبادات
والعادات؛ السياسة الشرعية، ص ٢١-١٩؛ إعلام الموقعين، ج، ١، ص.
١٦٩ الأمثلة الثلاثة صور افتراضية للتوضيح.

المراجع

مرجع أسئلة الخطاب المدني

[د] مآلات الخطاب المدني. مرجع رئيس لأسئلة الخطاب المدني التي أعيد تناولها في هذا الكتاب. ترجع الإحالات إلى عناوين مباحثه؛ أما الصياغة والأمثلة والمناقشات المضافة هنا فلا تنسب إلى صاحب ذلك العمل.

القرآن والحديث والتفسير

القرآن الكريم. وضعت السورة ورقم الآية مع مواضع الاستدلال. وما لم يوضع بين علامتي اقتباس فهو إشارة إلى المعنى، لا نقل للفظ الآية. محمد بن إسماعيل البخاري، الصحيح؛ الأحاديث ٢٦٩٧ و ٣٦٥١ ومسلم بن الحجاج، الصحيح؛ الأحاديث ٨٦٧ و ٢٣٦١ و ٢٣٦٣ و ٢٧٢٠ و ٢٨٦٥ الأرقام أرقام أحاديث وفق الترقيم المعروض في النسخ الرقمية، وليست أرقام صفحات. عرض مضمون الأحاديث في المتن دون نقل مطول.

<https://sunnah.com/bukhari:2697>

<https://sunnah.com/bukhari:3651>

<https://sunnah.com/muslim:867a>

<https://sunnah.com/muslim:2361>

<https://sunnah.com/muslim:2363>

<https://sunnah.com/muslim:2720>

<https://sunnah.com/muslim:2865a>

محمد بن جرير الطبري، جامع البيان؛ ومحمد بن أحمد القرطبي،
الجامع لأحكام القرآن: تفسير هود. ٦١ وإسماعيل بن عمر ابن
كثير، تفسير القرآن العظيم: تفسير البقرة. ٣٠ النصوص الرقية في
مشروع المصحف الإلكتروني بجامعة الملك سعود.

<https://quran.ksu.edu.sa/tafseer/tabary/sura11-aya61.html>

<https://quran.ksu.edu.sa/tafseer/qortobi/sura11-aya61.html>

<https://quran.ksu.edu.sa/tafseer/katheer/sura2-aya30.html>

كتب في العبادة والفهم والفقه

العبودية، تحقيق محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت.
ص، ٥٤-٤٣ في معنى العبادة واتساعها. درء تعارض العقل
والنقل، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية. ج، ١، ص، ٨٠-٧٥ في الألفاظ المجملة ومراتب
الأدلة؛ وص-١٧٧، ١٧٨ في صدق الرسول وقبول خبره. مجموع
الفتاوى، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد
لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة. المواضع المحددة في
مصادر الفصول في العلم والعدل والاجتهاد وأحكام المعين ولازم

القول ونقد تقصير المنتسبين إلى السنة. السياسة الشرعية، إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية. ص، ٢١-١٩ في الأمانات واختيار الأصلح للولاية. الصفدية، تحقيق محمد رشاد سالم، مصر. ج، ٢، ص، ٢٣٥ - ٢٣٤ في العلم والعمل. مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت. ص، ٤٠-٣٨ في طرائق الفهم وأسباب الخطأ. رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص. ٩-٨ النص الإلكتروني بمعرف الشاملة ١١٨؛ لا تتضمن بيانات النسخة المتاحة تفاصيل نشر مكتملة. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت. ج، ١، ص ٢٧١-٢٧٠ وج، ١، ص، ٥٤٩-٥٤٨ في التشبه والمشاركة الظاهرة. إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت. ج، ١، ص، ٦٩-٦٨ وج، ٣، ص، ١١-١٠ وج، ٣، ص، ٣٨-٣٧ وج، ٣، ص، ١٣٧-١٣٥ في فهم الواقع والواجب ومقاصد الشريعة وتغير الفتوى والحيل. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتمد بالله البغدادى، دار الكتاب العربي، بيروت. ج، ١ ص ١١١-١٠٩ وج، ١ ص-١٥٣، ١٥٤ في عبادة الوقت والصبر والتوكل. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت. ج، ١، ص، ٨٢-٨١ في

العلم والعمل. الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت. ص ٥٨ -
٥٦ و ٩٤-٩٢، و ١٤٩ في إرادة العبد والرضا والإخلاص. أرقام
الأجزاء والصفحات في هذه المصادر تتبع النصوص الرقمية الحاملة
لبائانات الطباعات المذكورة في مجموعة OpenITI المنقولة عن
الشاملة. وقد تختلف عن طباعات أخرى.

المصادر الحديثة

جون ستيوارت مل، عن الحرية، On Liberty، طبعة Walter
Scott، Publishing بمقدمة، W. L. Courtney، النسخة الرقمية في
مشروع غوتنبرغ، رقم ٣٤٩٠١ الإحالة إلى متن مل، الفصول
الأول والثاني والرابع.

<https://www.gutenberg.org/ebooks/34901>

جون ستيوارت مل، النفعية، Utilitarianism، مشروع
غوتنبرغ، رقم ١١٢٢٤، الفصول الثاني والرابع والخامس.

<https://www.gutenberg.org/ebooks/11224>

كارل ماركس، مقدمة مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي A
Contribution to the Critique of Political Economy، ١٨٥٩،
أرشيف الماركسيين على الإنترنت. الاستفادة من
أطروحة المقدمة المحددة.

<https://www.marxists.org/archive/marx/works/1859/critique-pol-economy/preface.htm>

سيغموند فرويد، مستقبل وهم، The Future of an Illusion،
ترجمة جيمس ستراشي، W. W. Norton، حقوق الترجمة
١٩٦١؛ الفصل السادس، ص-٣٠.٣٢ صدر الأصل الألماني
سنة ١٩٢٧ العنوان العربي تعريف بالكتاب الذي رجع إليه
بالإنجليزية.

<https://archive.org/download/sigmund-freud-the-future-of-an-illusion/sigmund-freudthe-future-of-an-illusion.pdf>

ميشال فوكو «، نيتشه، فرويد، ماركس»، Nietzsche, Freud, Marx
Transforming، ترجمة آلان د. شريف، ضمن كتاب، the Hermeneutic Context
تحرير غايل أورميستون وآلان
شريف، جامعة ولاية نيويورك، ١٩٩٠، ص-٥٩.٦٧

<https://gruppegrundrisse.files.wordpress.com/2012/06/foucault-nietzsche-freud-marx.pdf>

زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، فصل «سؤال مطروح»،
النسخة الإلكترونية لمؤسسة هنداوي. ٢٠١٨،

[/https://www.safahat.org/books/69496185/1](https://www.safahat.org/books/69496185/1)

حسن حنفي، التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، أصل
الكتاب، ١٩٨٠ النسخة الإلكترونية لهنداوي. ٢٠١٩، موضع

المناقشة: الفصل الرابع «، منطق التجديد اللغوي» و«قصور اللغة التقليدية»، البند الأول.

[/https://www.safahat.org/books/81694941/4](https://www.safahat.org/books/81694941/4)

محمد أركون «، إعادة التفكير في الإسلام اليوم»، Rethinking
The Annals of the American مجلة، Islam Today
Academy of Political and Social، Science المجلد،
٥٨٨ يوليو، ٢٠٠٣ ص ٣٩-١٨؛ موضع المناقشة ص-٢٣. ٢٤

<https://www.byv.org.tr/wp-content/uploads/2013/10/arkoun-rethinking-islam-today.pdf>

نصر حامد أبو زيد، بمساعدة كاتيون أميربور ومحمد نور خالص
سيتياوان، إصلاح الفكر الإسلامي Reformation of Islamic
Thought: A Critical، ، Historical Analysis دار نشر
جامعة أمستردام. ٢٠٠٦، المبحث، ٥٦، ص، ٩٥-٩٣ وفيه
عرض المؤلف لموقفه. العنوان العربي ترجمة تعريفية لعنوان المصدر
الإنجليزي.

<https://english.wrr.nl/documents/2006/04/12/reformation-of-islamic-thought>

محمد عابد الجابري «، مساءلة مفهوم المجتمع المدني»، موقع المؤلف.

<https://www.aljabriabed.net/maj22societecivile.htm>

Humanists International إعلان أمستردام. ٢٠٢٢،

[/https://humanists.international/what-is-humanism/the-amsterdam-declaration](https://humanists.international/what-is-humanism/the-amsterdam-declaration)

ترجع المناقشات إلى المواضيع المعينة في هذه المصادر، ولا تحمل على جميع مؤلفات أصحابها أو جميع الآراء داخل اتجاهاتهم. تاريخ الرجوع إلى المصادر الإلكترونية الحديثة ١٦ : سبتمبر. ٢٠٢٦